الحلم

(محاسنه - أهله - مكانته)

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة
آداب إسلامية
(٥)

الحلم

(محاسنه ـ أهله ـ مكانته)

تأليف
أحمد خليل جمعة يوسف علي بديوي

الطبعة الأولى

1423هـ - 2003م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

المُقَدّمَةُ

● الحمدُ للهِ الذي هَدانَا لفضيلَةِ حَمْدِه ، وَحَدانَا إلى تَمْجيدِهِ بمَجْده ، وأنزلَ الفُرْقانَ على عبدِهِ ، واختصَّهُ ببلاغِ رسالاتِهِ وعَهْدِه ، فَدَعَا بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ إلى سبيلِ ربِّهِ ، وأطْلَعَ الإيمانَ من مَطْلَعِهِ وأهَبَّهُ من مَهَبِّهِ .

● اللَّهُمَّ اجعَلْنا مِنْ أُمَّتِهِ ، واسْتَعْمِلْنا بسُنَّتِهِ ، واشغَلْ قلوبَنا بتذكارِهِ ومحبَّتِهِ ، وانْفَعْنا بآثارِهِ وسيرَتِهِ .

● اللهمَّ يا مَنْ جعَلْتَ الأرضَ قراراً ، وفجَّرْتَ خلالَها أنهاراً ، وجعلتَ لنا من الشَّجَرِ الأخضَرِ ناراً ، زيَّنّا بالحِلْمِ ليكونَ لنا دِثاراً ، وأكْرِمْنا بنورِ الفَهْمِ ليكونَ لنا شِعاراً .

● ونشهَدُ أنَّ محمَّداً رسولُهُ الذي ارتَضى ، وحُسامُهُ المُضيءُ المُنْتَضى ، وأمينُهُ الصَّادقُ المُصْطَفى ، الذي ختَمَ به الأنبياءَ ووفى ، فكان الرَّؤوفَ الرَّحيمَ ، والرَّسولَ الحَليمَ ،

ذا الخُلُقِ العظيمِ ، والحَسَبِ الكريم ، والصَّفْحِ الجميلِ ، والحِلْمِ الجليلِ .

وبَعْدُ :

● فإنَّ الحِلْمَ ذِرْوَةُ كلِّ أدَبٍ وفَضْلٍ ، ورحيقُ كلِّ زهرٍ وفُلٍّ ، وهو لُبُّ كلِّ كرمٍ ونَدى ، ترشحُ من أرْدانِهِ قَطَراتُ النَّدى ، فترسمُ للنّاسِ طريقَ النُّورِ والهُدى ، فتجعلُ العبدَ بالحِلْمِ سَيِّداً ، والمملوكَ عالياً وإن كان أمْرَداً .

● ومنذُ أن جاذَبْنَا الآدابَ الإسلاميَّةَ حَبْلَ الودِّ ، وتذَوَّقْنا أطايبَ ثمارِها اليانعَةِ بما ليس لهُ من حدّ ، أحبَبْنا أن نَصوغَ أدبَ الحِلْمِ بكلماتٍ هامساتٍ ، وننظمهُ في عباراتٍ دافئاتٍ دافقاتٍ ، تزيِّنُ حنايا القُلوبِ بجمالِ معانيها ، وتطربُ الألبابَ بسِحْرِ مغانيها ، وظننا بادىءَ الأمرِ أنَّ نَظْمَ الحِلْمِ قريبُ المنالِ ، فإذا بهِ بعيدُ المدى صَعْبُ النَّوال .

● ولمّا كان الأمرُ كذلك انتَضَيْنَا القلمَ لنرسُمَ بالحلْمِ أجملَ الصَّفحاتِ ، ونَنْتَقي من زَهْرِ الرُّبى أنفعَ الآدابِ والصِّفات ، لتكونَ مفعمةً بالبِشْرِ والأُنْسِ ، جميلةَ النَّفْعِ كَسَنا

الشَّمْسِ ، ورُحْنا نجوسُ جداولَ الآدابِ لننعَمَ بأنْداءِ الألْبابِ ، ونُقدِّمَها سائِغَةً هنيَّةً للشُّرَّاب ، فتتغذَّى بها العُقولُ ويحلو بها الكِتاب ، ويكونَ نجعةً للحضورِ والغُيَّاب والأحباب .

● نعم ، أحبابَنا القُرَّاء الأعزَّاء ؛ إنَّ الحلمَ من الموضوعات التي يحسبُ المرءُ أنَّها دانيةُ القُطوفِ ، رقيقةُ الأستارِ والشُّفوفِ ، فإذا ما أرادَ اقتطافَ جنى زَهْرِهِ ورَيْحانِهِ ، وجَدَ المصاعبَ في جَمْعِ أشْكالِهِ وألوانِهِ ، فهو سَهْلٌ للوهلةِ الأُولى ، صعبُ النَّظْمِ منذُ الصَّفْحَةِ الأولى .

● واللهُ وَحْدَهُ يعلمُ كم لاقَيْنَا من مشاقَّ وعَثَراتٍ في الطَّريقِ ، لننظُمَ ما تناثَرَ من عقْدِ هذه المادَّةِ في كلِّ فَجٍّ عميق ، وما تباعَدَ منها في بطونِ الأسْفَارِ ، وأعماقِ المصادرِ الكِبارِ ، بالإضافةِ إلى نُدْرَةِ مادَّةِ الحِلْمِ في القرآن الكريم ، والذِّكْرِ الحكيمِ ، لهذا كلّه أحبَبْنا أن يكونَ هذا الموضوعُ سَهْلَ المنالِ غزيرَ النَّفعِ لطيفَ الطَّيفِ والخيالِ .

● ومن خلالِ رحلتِنا الشَّاقَّةِ الشَّائقَةِ في عالَمِ المصادرِ مع الحِلْمِ ، استطَعْنا ـ بفضلِ اللهِ ونِعَمِهِ ـ أنْ ننظُمَ هذا الكتابَ في

سَبْعَةِ أبوابٍ سِمانٍ ، وقَفْنا في أُولاها بين يَدَيْ الحِلْمِ ، وتحدَّثْنا عنهُ في ميزانِ الأخلاقِ ، والأدبِ ، واللُّغَةِ ، ثمَّ عزَّزْنا البابَ الثَّاني بالحديثِ عن الحِلْمِ في ضَوءِ القُرآنِ والسُّنَّةِ ، وأفَضْنا في الحديثِ عن ذلك بما يحتاجُهُ كلُّ مُسلمٍ ، وكلُّ متأدِّبٍ يودُّ الاستزادةَ من هذَيْنِ المصدرَيْنِ الكريمَيْنِ : القرآن والسُّنَّة .

● وفي البابِ الثَّالثِ ؛ أبحَرْنا مع الحِلْمِ في وصايا الصَّحابةِ ، وكُبَراءِ التَّابعين ، وعُلماءِ الأُمَّةِ .

● وحلَّقْنَا عالياً عالياً في البابِ الرَّابعِ مع الحِلمِ ومكارمِ الأخلاقِ ، لما لهُ من صِلاتٍ وثيقةٍ مع السُّؤدُدِ ، وكرَمِ النَّفْسِ ، وشريفِ الخِصالِ ، وكان الحديثُ رائقاً شائقاً ، حيثُ عزَّزْنا ذلك بالحكمةِ الطَّريفةِ ، والطُّرفَةِ اللَّطيفةِ ، والقصَّةِ الخفيفةِ ، لتكونَ مادَّتُنا أليفةً .

● وعَقَدْنا البابَ الخامسَ ليكونَ العمودَ الفِقْريَّ لهذا الكتابِ ، فقد تحدَّثْنا عنِ الحِلْمِ ، وعنِ الغَضَبِ المحمودِ ، ثمَّ عن بواعثِ الحِلْمِ وأسبابِهِ ، وعن علاجِ الغَضَبِ ، وكلُّ ذلك بالدَّلائلِ المفيدةِ ، التي تغْرِسُ المحامِدَ في القُلوبِ ،

وتُهذِّبُ النُّفوسَ ، وتصقُلُ الطِّباعَ .

● وفي البابِ السَّادسِ تعَرَّضْنا للحِلْمِ بين المدحِ والذَّمِّ ، وذلك في أقوالِ العربِ وأمثالهم .

● وأمّا البابُ السَّابعُ الخاتَمُ ، فكان عنِ الحِلْمِ في نفحاتِ الأُدباءِ والحُكماءِ ، فقد أورَدْنا بعضَ ما جادَتْ به قرائحُ الشُّعراءِ من لطيفِ الآدابِ ، وما أسفرَتْ عنه أنفاسُ الحُلَماءِ والفلاسفةِ في هذا المِضْمارِ الجميل ، وقَفَّيْنا ذلك كُلَّهُ بنُبْذَةٍ من قصَصٍ وأخبارِ حُلَماءِ العربِ في عصورها الخوالي .

● وسيلْحَظُ القارىءُ الكريمُ المشقَّةَ التي تجشَّمْناها لنُذلِّلَ له ما صَعُبَ ، كما سيَلْحَظُ كثرةَ المصادرِ وتنوُّعها ، والتي جاء في مقدِّمَتِها : القُرآنُ الكريمُ وعلومه ، وكذلك السُّنَّةُ النَّبويَّةُ ومجالاتُها ، يُضافُ إلى ذلك أُمَّاتُ المصادرِ الأدبيَّةِ ، والتَّاريخيَّةِ ، والجغرافيَّةِ ، والدِّينيَّةِ ، والموسوعات ، ومعاجمُ اللُّغةِ ، وما رافقَ ذلك من دواوينَ عديدةٍ لشُعراءَ من الماضي والحاضر ، وغيرِ ذلك كثيرٌ كثيرٌ ممّا هو منثورٌ في مَتْنِ الكتابِ وحواشيهِ .

● وها نحنُ أولاءِ نقتربُ من خِتامِ هذه المُقدّمةِ ، لنقتربَ من قُلوبِ القُرَّاءِ الأعِزَّاءِ ، ونتركَهُم ينعمونَ في ديباجِ وحُلَلِ هذا الأدبِ الجميلِ المِعْطاءِ ، وينهلونَ من عَذْبِ رضابِهِ الشَّديدِ الصَّفاءِ ، وكُلُّنا أمَلٌ ورجاءٌ أن يخصَّانا بدعواتٍ وضيئاتٍ ، إذ « الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ »[1] ، ونحنُ نطمعُ المزيدَ منهم في هذا المجال بالزِّيادَةِ .

● اللهمَّ اجعَلِ الحِلْمَ لنا الشِّعارَ والدِّثارَ والرَّفيقَ ، وألْهِمْنا شُكرَكَ واجعَلْهُ لنا نِعْمَ الصَّديق .

● اللهمَّ واجعَلِ الحِلْمَ خُلُقاً لنا نُعامِلُ به العِبادَ ، واهدِنا إلى طريقِ الرَّشادِ والسَّدادِ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) .

الباب الأول

بين يدي الحلم

الفصلُ الأوّلُ : الحلمُ في ميزان الأخلاق والأدب .

الفصلُ الثَّاني : من معاني الحلم في معاجم اللغة .

الفصلُ الأوّلُ

الحِلْمُ في ميزانِ الأخْلاقِ والأدَبِ

* في رحابِ الحِلْمِ وآدابه ، نحيا هذه الصَّفحات النَّضرات ، ننعُمُ في نعيمه ، ونتفيَّأُ في ظلاله ، ونقتطفُ من زهر رُباه ، ونستروحُ عِطْرَ شَذاه ، إذ الحلمُ سيِّد الأخلاق والفضائل ، وينبوع خير الخصائل ، ومصدرُ كلِّ سكينةٍ ووقار ، ومنبعُ كلِّ خيرٍ تقعُ عليه الأبصار .

* فالحلمُ من أشرفِ الأخلاقِ ، وأحقِّها بذوي الألباب الأنجاب ، لما فيه من سلامة العرض ، وراحةِ الجسد ، واجتلاب الحمد ، فلا نكادُ نجدُ خليقةً طيِّبةً ، ولا نتيجةً حسنَةً ، ولا غايةً حميدةً ، ولا نهايةً سعيدةً ، إلا كان الحلمُ طريقَها ، والموصلَ إليها لأنَّه يقتلعُ الشَّرَّ من جذوره ،

ويُطفىءُ النّارَ في أوّلها ، ويقضي على كلِّ فتنةٍ في مهدها ، ويرغمُ الشَّيطانَ ، إذ أوّلُ ما حوربَ به الشَّيطانُ الحلم والأناة ، وبذلك اندحرَ وخَنَسَ ، وقد قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أوّلُ عوض الحليم عن حلمه أنَّ النّاسَ أنصارُهُ[1] .

* والحلمُ أدبٌ رائعٌ من آدابِ الإسلام ، يهبُ اللهُ هذه السِّمَةَ الطيِّبةَ مَنْ أحبَّ من عباده ، ومن الطريفِ أنَّ بعضَ العلماءِ جعلَ الحلمَ مُقدَّماً على العقلِ فقال : الحلمُ أرفعُ من العقلِ ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تسمَّى بالحلم ، ولم يتسمَّ بالعقل .

* قال بعضُ الأدباء وقد رأى السِّلْمَ في ثنايا الحلم : مَنْ غرسَ شجرةَ الحلم ، اجتنى شجرةَ السِّلْمِ .

* ولعلَّ الحلمَ من أرفعِ الخصائلِ المحمودة ، وأحسنِ الحصائلِ الموجودة ، ولو لم يكن في الحلم خَصْلةٌ تُحْمَدُ إلا

---

(١) وفي لفظ آخر أنَّ عليًّا قال : حلمُكَ عن السَّفيه يكثرُ أنصارَكَ عليه .

ترك اكتساب المعاصي ، والدُّخول في المواضع الدَّنسة ، لكان الواجبُ على العاقلِ ألا يفارقَ الحلمَ ما وجد إلى استعماله سبيلاً .

* قال أبو حاتم البستي ـ رحمه الله ـ : إنَّ من نفاسةِ اسم الحلم وارتفاع قدره ، أنَّ الله جلَّ وعلا تسمَّى به ، ثمّ لم يسمِّ بالحلم في كتابه أحداً إلا إبراهيم خليله ، وإسماعيل ذبيحه ، حيث قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] ، وقال : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[1] [الصافات : ١٠١] .

* إنَّ الحلمَ سجيَّةٌ وتجربَةٌ يكتسبُها المرءُ العاقلُ ويستفيدُ منهما في حياته ، وقد أُثِرَ عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قوله : لا حلمَ إلا بالتّجربة .

* وممّا أُثِرَ عن أبي الدَّرداء رضي الله عنهما قوله المشهور : إنَّما العلمُ بالتَّعلُّمِ ، وإنّما الحلمُ بالتحلُّمِ ، ومن

---

(١) روضة العقلاء (ص ١٤٦) .

يتوخَ الخيرَ يُعْطَهُ ، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَه[1] .

ولله دَرُّ مَنْ قال فأحسنَ وأجاد :

فارْضَ بما حُمَّ من قضاءِ ... يُصِبْكَ من ذلك الخيار
وعِشْ حميداً رخي بالٍ ... ما زانكَ الحلم والوقار

* إنَّ أوَّلَ درجاتِ الحلم ضبطُ النَّفسِ ، ومصافاةُ الصَّديق ، والبعدُ عن السَّفَهِ والسُّفهاء ، وعن الغضب وهيجان النَّفس ، لأنَّ مَنْ حَلُمَ ساد ، ومَنْ تفهَّمَ ازداد ، وما ذَبَّ عن الأعراضِ كالحلم والصَّفح والإعراض ؛ قال بعضُ بُلغاءِ الشُّعراء :

أحبُّ مكارم الأخلاقِ جُهدي ... وأكرهُ أن أعيبَ وأن أُعابا
وأصفحُ عن سِبابِ الناس حلماً ... وشرُّ النّاسِ من يهوى السِّبابا
ومَنْ هابَ الرِّجالَ تهيَّبوهُ ... ومَنْ حَقَرَ الرِّجالَ فلن يُهابا

* إنَّ العاقلَ إذا ما جارى السَّفيه في سفهه ، ونأى عن

---

(١) روضة العقلاء (ص ١٤٦) .

الحلم ، وكافأهُ بفعله ، فهل هو إلا مثلُه ؟! بل أدنى منه ، ولكنّه إذا ترفَّعَ عن طيشه فإنّه يقهرُه بالحلم ، والفضل :

إذا أنا كافيتُ الجَهولَ بفعلِه فهل أنا إلا مثلُهُ إذْ أحاورُه
ولكن إذا ما طاشَ بالجهلِ طائشٌ عليَّ فإنّي بالتَّحلُّمِ قاهِرُه

* وممّا يزيدُ في رصيدِ الآدابِ الإسلاميَّةِ أدبُ الحلم ، وهو رداءٌ عظيمٌ من أردية العلم ، وتاجٌ من أجملِ تيجانِ المعرفة ، فقد ورد أنَّ رجُلاً كتب إلى أخٍ له : اعلمْ أنَّ الحلمَ لباسُ العلم ، فلا تعرينَّ منه .

* وكانت دعواتُ أُدباءِ العلماءِ قديماً وحديثاً إلى التَّحلِّي بالحلم ولزومه وتعلُّمه ، فإنَّ المرءَ الحليمَ يرتقي درجات العلا بحلمه ؛ قال أبو حاتم البستي ـ رحمه الله ـ : العاقلُ يلزمُ الحلم عن النَّاسِ كافّة ، فإن صَعُبَ ذلك عليه فليتحالم ؛ لأنَّه يرتقي إلى درجة الحلم[1] .

* إنَّ أوَّلَ الحلمِ المعرفةُ ، ثم التَّثبُّتُ ، ثمَّ العزمُ ، ثمَّ

---

(١) روضة العقلاء (ص ٣٤٧) .

التَّصبُّرُ ، ثمَّ الرِّضا ، ثمَّ الصَّمتُ والإغضاءُ ، وما الفضل إلا للمحسن إلى المسيء ، فأمّا من أحسنَ إلى المحسنِ ، وحَلُمَ عمَّن لم يؤذِهِ ، فليس ذلك بحلمٍ ولا إحسانٍ .

* ومكارمُ الأخلاقِ كلُّها رائعةٌ ، ولكن هنالك فضائلُ تزدادُ حُسناً إذا جُمِعَ بعضها إلى بعض ، فما ضُمَّ شيءٌ إلى شيءٍ هو أحسن من حلمٍ إلى علمٍ ، وما عُدِمَ شيءٌ في شيءٍ هو أقبحُ من عدم الحلم في العالِمِ ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل ؛ والآخر الصَّبر .

* والحلمُ دفعُ السَّيِّئة بالحسنة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤ـ٣٥] .

* والحلمُ دعامةُ العقلِ ، فليس الحليمُ مَنْ إذا ظُلِمَ حَلُمَ حتى إذا قدر انتصر ؛ ولكنّ الحليمَ العاقل مَنْ ظُلِمَ فإذا قدر غفرَ وعفا .

* والحلمُ جوهرٌ في الإنسان ، يصدرُ عن صَدْرٍ سالمٍ من

الغـوائـلِ والأذى ، صـافٍ مـن شـوائـبِ الكَـدَرِ والقـذى ، لا يُستطاعُ تعلُّماً ، ولا يُدركُ تبصُّراً وتفهُّماً ، كما قال أبو الطيِّب أحمد بن الحُسين المتنبّي :

وإذا الحلمُ لم يكن عن طباعٍ لم يكن عن تقادُمِ الميلادِ[1]

* ويُقال : الحليمُ سليمٌ ، والسَّفيهُ كليمٌ .

* وقال محمد بن عجلان : ما شيءٌ أشدُّ على الشَّيطان من عالمٍ معه حلم ، إن تكلَّمَ تكلَّمَ بعلم ، وإن سكتَ سكتَ بحلم ، يقول الشَّيطانُ : سكوتُه عليَّ أشدُّ من كلامه[2] .

* وقد امتدحَ الفُضلاءُ الحلم فقالوا : الحلمُ والأناةُ توءمان ينتجهما علوُّ الهِمَّةِ .

* ومن كلام النبوَّةِ : « كادَ الحليمُ أن يكون نبيًّا » .

* وقالوا : الحلمُ مطيَّةٌ وطيئةٌ تبلِّغُ راكبَها قاصية المجد ، وتُملِّكُهُ ناصيةَ الحمد .

---

(١) نهاية الأرب (٦/ ٤٨) .
(٢) المستطرف (١/ ١٩٢) .

* وقال أبو هلال العسكري : ومن أشرف نعوتِ الإنسان أن يُدعى حليماً ، لأنَّه لا يُدعاه حتى يكون عاقلاً وعالماً ومصطبراً ومحتسباً وعفوًّا وصافحاً ومحتملاً وكاظماً ؛ وهذه شرائفُ الأخلاق ، وكرائمُ السَّجايا والخِصال .

* * *

الفصلُ الثّاني

من معاني الحِلْمِ في معاجِمِ اللُّغَةِ

* تُتحفُنا المعاجمُ العربيةُ قديمُها وحديثُها في توضيح معنى كلمة الحلم ، ولعلَّ أكثر مَنْ توسَّعَ في هذا المجال هو العلاّمةُ ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ حيثُ وقف طويلاً عند مادّة الحلم ، ولذا فإنّنا سنعيشُ أويقات حلوة ونحنُ نقرأُ ما جادت به أنفاسُ ابن منظور عن الحلم ، فيقول ما مفاده ومُلخَّصه ومحصّله :

« الحِلْمُ » : بالكسر : الأناةُ والعقلُ ، وجمعُه : أحلام وحلوم .

وفي التَّنزيل العزيز : ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور : ٣٢] .

وقال جرير :

هـل مِـنْ حلـومٍ لأقـوامٍ فتنـذرهـم
ما جرَّب النّاسُ من عضّي وتضريسي ؟

وأحلامُ القوم : حلماؤهم . ورجلٌ حليمٌ من قومٍ أحلام وحُلماء .

وحَلُمَ : بالضمِّ ، يحلمُ حِلْماً ، صارَ حليماً .

وحَلُمَ عنه وتحلَّمَ سواء ؛ وتحلَّم : تكلَّفَ الحلم ، قال الشَّاعر :

تحلَّـمْ عـن الأدنَيْـن واستَبْـقِ وُدَّهـم
ولـن تستطيـعَ الحلـمَ حتّـى تحلَّمـا

وتحالَم : أرى من نفسه ذلك وليس به .

والحلم : نقيضُ السَّفَه ، وشاهدُ حَلُمَ الرَّجلُ بالضمّ ، قول عُبيد الله بن قيس الرّقيات :

مُجرَّبُ الحزمِ في الأمور وإنْ خفَّـتْ حلـومٌ بـأهلِهـا حَلُمـا

وحلَّمه تحليماً : جعله حليماً ؛ قال المُخبَّل السَّعدي :

وَرَدُّوا صُـدورَ الخيـلِ حتّـى تنهنَهَـتْ
إلـى ذي النُّهَـى واستيـدهـوا للمُحلِّـمِ

أي أطاعوا الذي يأمرهم بالحلْمِ . وقيل : حلَّمه : أمره بالحلم .

* وفي حديث النَّبي ﷺ في صلاة الجماعة :

« لِيَلِيَني منكم أُولو الأحلامِ والنُّهى » ؛ أي ذوو الألبابِ والعقول ، واحِدُها حِلْمٌ بالكَسْرِ ، وكأنّه من الحِلْمِ الأناة والتَّثبُّت في الأمور ، وذلك من شعائرِ العُقلاء ، وأحلمتِ المرأةُ إذا ولدتِ الحُلماء .

* « والحليمُ » ؛ في صفة الله عزَّ وجلَّ معناه : الصَّبور ، وقال : معناه أنَّه الذي لا يستخفُّه عصيانُ العُصاة ، ولا يستفزُّه الغضب عليهم ، ولكنّه جعلَ لكلِّ شيءٍ مقداراً ، فهو مُنْتَهٍ إليه .

* وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] ، قال الأزهري : جاء في التَّفسير أنَّه كنايةٌ عن أنّهم قالوا : إنّكَ لأنتَ السَّفيهُ الجاهل ؛ وقيل : إنّهم قالوا على

جهةِ الاستهزاء ؛ قال ابنُ عرفة : هذا من أشدِّ سِبابِ العربِ أن يقولَ الرَّجلُ لصاحبهِ إذا استجهله : يا حليم! أي أنتَ عند نفسكَ حليم ، وعند النّاس سفيه ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان : ٤٩] ، أي بزعمكَ وعند نفسك ، وأنتَ المهينُ عندنا[١] .

* وعند أحمد بن فارس ـ رحمه الله ـ نجد معاني أخرى جميلة للحلم ، حيث عقدَ في كتابه « مجمل اللغة »فصلاً عن الحلم فقال :

حلم : الحِلْمُ : تركُ الإعجالِ بالعقوبةِ ، وتركُ الطّيشِ ، يقال : حلُمْتُ عنه ، أحلُمُ حلماً ، وحَلِمَ الأديمُ حَلَماً ، إذا تثقَّبَ وفسد ، قال الشَّاعر :

فإنَّكَ والكتابَ إلى عليٍّ كدابغةٍ وقدْ حَلِمَ الأديمُ[٢]

---

(١) لسان العرب (١٢/١٤٦) بتصرف يسير جداً .
(٢) مجمل اللغة (ص ١٨٠) مادة حلم ، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان ، طبعة ١٩٩٤ م .

* ونقرأُ عند الزَّمخشري عن الحلم فيقول ما مُلخَّصهُ : يُقال : حَلُمَ فلان ، فهو حليمٌ ، وفيه حِلْمٌ أي أناة وعَقْل ، وهو من ذوي الأحلام ، ولهم أحلام عاد ، وتحلّم : تكلَّف الحِلْمَ ، قال حاتم :

تحَلَّـمْ عـن الأدنيـن واستبـقِ ودَّهـم
ولـن تستطيـعَ الحِلْـمَ حتـى تحلّمـا

وحَلُمَ عن السَّفيه ، واللهُ حليمٌ عن العُصاة : لا يعاجلهم بالعقاب[1] .

* وقال الفيومي في المصباح المنير : حَلُمَ : بالضَّمّ ، حِلْماً ، بـالكسـر : صفَـحَ وستـر ، فهـو حليـم ، وحلَّمتُـه بالتَّشديد : نسبتُه إلى الحِلْم ؛ وباسم الفاعل سُمّي الرَّجلُ مُحلِّم ، ومنه : مُحلِّم بن جثّامة ، وهو الذي قتلَ رجلاً بذحَل الجاهلية بعد ما قال لا إله إلا الله ، فقال عليه السَّلام :

---

(١) أسـاس البـلاغـة (ص ١٤٠) دار الفكـر ، بيـروت ، طبعـة ١٩٩٤ م .

« اللهمَّ لا ترحم محلّماً » ، فلمّا مات ودُفِنَ لفظته الأرضُ ثلاثَ مرَّاتٍ[1] .

* وعند أبي البقاء الكفوي نجد أنَّ الحلمَ له مساحة في « كليّاته » ومنها : حَلُمْت : عن الرجل أحلُمُ حُلْماً وأنا حليم ، وبابه كَرُم ، ومصدره الحِلْمُ بالكسر ؛ وهو الأناة والسُّكون ، مع القُدرة والقوّة[2] .

* * *

(١) المصباح المنير للفيومي (ص ١٤٨) .
(٢) الكليّات (ص ٤٠٤) .

الباب الثاني

الحلم في القرآن والسنة

الفصلُ الأوّل : الحلمُ في معاني القُرآن الكريم .

الفصلُ الثَّاني : الحلمُ من الشَّمائلِ المحمَّديّة .

الفصلُ الثَّالث : توجيهاتٌ وأحاديثُ نبويَّةٌ في الحلم .

الفصلُ الأوّلُ

الحلمُ في معاني القُرآنِ الكريمِ

* الحلمُ من المفرداتِ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ الكريمِ ، ولكنَّنا عند دراستنا للحلم في ضوء كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ألفينا ما يسترعي الانتباه بادىء الأمر ، إذ لاحظنا أنَّ الحِلْمَ لم يَرِدْ كثيراً في القرآنِ العظيم ، بل إنَّ مادَّةَ حلم واشتقاقاتها قد وردت في سبعة مواضعَ ، وهذه صورتها : (الحُلُم ، أحْلامٍ ، الأحلام ، أحلامُهم ، حليم ، الحليم ، حليماً) .

* وتحملُ مادّة الحلم معانيَ فتقول : حَلَمَ في نومه ؛ يحْلُم حُلْماً وحُلُماً : رأى في منامه رؤيا .

وحَلَم الصَّبيُّ يحلمُ حُلُماً واحتلم : أدرك وبلغَ مبلغَ الرِّجال .

والحُلُم : هو ما يراهُ النَّائمُ ، وجمعُه أحلام .

والحُلُم : الإدراكُ وبلوغُ مبلغ الرِّجال .

والحِلْم : بكسر الحاء ، العَقْل ، وجمعُه أحلام وحلوم .

والذي يهمُّنا من هذه المعاني كلمة الحِلْم : فالحِلْم معناه : ضَبْطُ النَّفسِ عند الغضب ، فتقول : حَلُمَ يَحْلُم حِلماً ، فهو حليم . والحليمُ في أسماء الله تعالى : لا يعاجل بالعقوبة .

* وقد وردَتْ كلمة حليم (١١ مرّة) في القرآن الكريم ، وحليماً (٣ مرات) ، منها اسم الله « حليم » الذي اقترنَ بالمغفرة في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] ، وكذلك في قوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ١٠١] ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، و ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

* كما نجدُ أنَّ لفظة « حليم » قد اقترنت بالغنى في قوله تعالى : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ

غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦٣] ، على أنّنا نجدها قد اقترنت بالعلم في مواضع في قوله تعالى : ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء : ١٢] ، وفي قوله عزَّ وجلَّ : ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج : ٥٩] ، وفي قوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾

[الأحزاب : ٥١] .

* كما ارتبطت لفظة « حليم » بالشُّكر في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن : ١٧] ، أمّا لفظة « أحلامهم » في صيغة الجمع ، فلم تَرِدْ إلا مرَّةً واحدةً في قوله تعالى : ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور : ٣٢] ، وأحلامهم هنا : عقولُهم ، والخطابُ موجَّهٌ في هذه الآية الكريمة للحبيب الأعظم ﷺ ؛ ومعناها : أهذا التكذيب لك يا محمد ؟ والأقوال التي قالوها ، هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم ؟ فبئس العقولُ والأحلامُ التي هذه نتائجها وهذه ثمراتها .

* إنَّ عقولاً جعلت أكملَ الخَلْقِ عقلاً مجنوناً ، وجعلت

أصدقَ الصُّدَّقِ ، وأحقَّ الحقِّ كذباً وباطلاً ، لهي العقول التي ينزَّه المجانين عنها .

* أمّا الذي حملهم على ذلك فهو ظلمُهم وطغيانُهم ؛ وهو الواقع ، فالطُّغيان ليس له حدٌّ يقفُ عنده ، فلا يُستغرب من الطّاغي المتجاوز الحدّ كلّ قولٍ وفعلٍ صدر منه[1] .

* ومن أوائل الذين تنبّهوا إلى مادّة الحلم في القرآن ، ولاحظوا أنّها قليلةٌ : الحسنُ البصري كبير التابعين حيث قال : ما نعتَ اللهُ تعالى الأنبياء نعتاً أقلَّ مما نعتهم به من الحلم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] ، وقال أبو عبيدة : يعني أنَّ الحلمَ في النّاس عزيز .

* وقال أبو عثمان الجاحظ : وفي طولِ ما مدحَ الله به عباده الصَّالحين ، لم يمدحهم بشيءٍ أكثر من ذكره لهم بالحلم ، ولم نجد ذلك إلا في موضعَيْن من القرآن العزيز .

---

(١) انظر : تفسير السَّعدي (ص ٧٥٨) مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ١٩٩٦ م .

* وأوَّلُ هذين الموضعَيْن ما يخصُّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السَّلام ، حيث ذكره ربُّنا عزَّ وجلَّ بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] ، وقوله عن إبراهيم أيضاً : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] .

* وثاني الموضعَيْن في ابنه إسماعيل عليه السَّلام ، إذ قال : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

* هذا ومعنى قوله عزَّ وجلَّ في سورة التوبة : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] ، أي رجَّاعٌ إلى اللهِ في جميع الأمور ، كثير الذِّكرِ والدُّعاء والاستغفار والإنابة إلى ربِّه .

* و « حليم » يعني : ذو رحمةٍ بالخَلْقِ ، وصفحٍ عمّا يصدرُ منهم إليه من الزلات ، لا يستفزُّه جهل الجاهلين ، ولا يقابلُ الجاني عليه بجرمه ، فأبوه قال له : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ ، وهو يقولُ له : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ .

* ومعنى قوله عزَّ وجلَّ في سورة هود : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ يعني : ذو خلقٍ وسِعَةِ صدرٍ ، وعدم غضب عند جهلِ الجاهلين . و ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾ أي : متضرِّعٌ إلى الله في جميع الأوقات .

و ﴿منيب﴾ : رجَّاعٌ إلى الله بمعرفته ومحبَّته والإقبالِ عليه ، والإعراض عمَّن سواه، فلذلك كان يجادِلُ عمّن خَتَمَ اللهُ بهلاكهم.

* وأمّا معنى قوله تعالى في سورة الصَّافات ، في صفة إسماعيل عليه السَّلام : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وصَفَهُ اللهُ بالحلم ، وهو يتضمَّنُ الصَّبرَ ، وحُسنَ الخُلُق ، وسِعَةَ الصَّدرِ ، والعفوَ عمّن جنى ، وفي قصَّةِ إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السَّلام ما يُشيرُ إلى الحِلْمِ ، وخصوصاً في قصَّة الذَّبيح وبناء الكعبة .

* على أنّنا نلمحُ معنًى آخر لكلمة « حليم » يخالفُ ما ذكرناهُ ، وذلك في قول المشركين من قوم شعيب عليه السَّلام : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] ، فهم يقصدون هنا السَّفَه على لسانهم ، ويقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتَّنقُّص والتَّهكُّم ؛ قال ابنُ عبّاس وجمهورٌ من العلماء والمفسّرين : يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء[1] .

---

(١) انظر : قصص الأنبياء (ص ٢٢٤) .

* قال الشَّيخُ عبد الرحمن السَّعدي في تفسيره للآية : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] ، أي : إنّكَ أنت الذي الحلمُ والوقارُ خُلُقٌ لك ، والرُّشدُ لك سجيّة ، فلا يصدرُ عنكَ إلا رشد ، ولا تأمرُ إلا برشد ، ولا تنهى إلا عن غي ، إنَّ الأمرَ ليس كذلك ، قالوا ذلك على وجه التَّهكُّمِ بنبيِّهم والاستبعاد لإجابتهم له . وقصدهم : أنّه موصوفٌ بعكسِ هذين الوَصفَيْن : بالسَّفه والغواية ؛ والمعنى : كيف تكون أنتَ الحليم الرَّشيد ، وآباؤنا هم السُّفهاءُ الغاوون ؟! فكيف نتبعُكَ ونتركُ آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب ؟!

* وهذا القولُ الذي أخرجوه بصيغةِ التَّهكُّم ، وأنَّ الأمرَ بعكسه ، ليس كما ظنُّوه ، بل الأمرُ كما قالوه . إنَّ صلاتَه تأمرُهُ أن ينهاهُم عمّا كان يعبدُ آباؤهم الضَّالُّون ، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون ، فإنَّ الصَّلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأيُّ فحشاء ومنكر أكبر من عبادةِ غير الله ؟! ومن

مَنْعِ حقوقِ عبادِ الله ، أو سرقتها بالمكاييل والموازين ، وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلام الحليم الرَّشيد ؟![1] .

* إنَّ قلَّةَ ورودِ الحلم في القرآن الكريم ، لا يعني أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يوصي به عباده ؛ فقد نوَّه القرآنُ الكريمُ إلى هذه الخصلةِ المحمودةِ في آياتٍ كثيرةٍ دون أن يذكرها صراحةً ، وذلك من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] ، وقوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

* وقد وردَ في تفسير بعض الصَّحابة لبعض الآيات بالحلم ، كما جاء عن أبي رزين[2] رضي الله عنه ، أنَّه فسَّرَ قوله تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، قال : يعني كونوا حلماء علماء .

* وجاءَ عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله

---

(١) انظر : تفسير السَّعدي (ص ٣٤٣) بتصرف .
(٢) انظر ترجمته في الإصابة (١١/١٣١ و ١٣٢) ترجمة رقم (٤٠٧) .

عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، قال : حلماء ، إن جُهِلَ عليهم لم يجهلوا .

* وجاءَ عن عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، قال : حلماء علماء[1] .

* ومن الإشراقات الجميلة في أدبِ الحلم في القرآن الكريم ، أنَّ الحليم من أسماء الله الحُسنى ، قال ابن قيّم الجوزية نظماً :

وهو الحليمُ فلا يعاجلُ عبدَهُ بعقوبةٍ ليتوبَ من عصيانِ

* قال الشَّيخُ عبد الرَّحمن السَّعدي في تعليقه على هذا البيت : ومن أسمائه سبحانه الحليم ، فالحليم : الذي له الحلم الكامل الذي وسعَ أهل الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة رجاء أن يتوبوا ، ولو شاء الله لأخذهم بذنوبهم فور صدورها منهم ، فإنَّ الذُّنوبَ

---

(١) انظر في هذا تفسير ابن كثير للآيات السابقة .

تقتضي ترتُّبَ آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوِّعة ، ولكنَّ حلمه سبحانه هو الذي اقتضى إمهالهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ [فاطر : ٤٥] .

* * *

الفصلُ الثّاني

الحِلْمُ مِنَ الشَّمائِلِ المُحمَّدِيَّةِ

* لئن كان الحِلْمُ سيِّدَ الأخلاق ، لقد أُوتي سيِّدُنا محمد رسول الله ﷺ جماعَ الأخلاقِ كلِّها ، فكان الأوَّلَ في كلِّ سجيَّةٍ خُلُقاً كريماً من حلمٍ وحياءٍ وصدقٍ ، وكلّ هذه المكارم ، وقد شهد ربُّنا عزَّ وجلَّ بحُسنِ خُلُقه ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

* وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ حليماً عفوًّا مع القُدْرةِ على الانتقام ممّن جهلَ ، ولكنَّ شمائله الشَّريفة ، وسجاياهُ العالية ، وتربيتَه الكريمة على عين الله عزَّ وجلَّ ، جعلته حليماً رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ، وقد تجاوزَ عن كثير من الناس ، فلما رأوا حلمَه آمنوا واهتدوا إلى طريق النور ، وسبيل الحق .

* قال ربُّنا عزَّ وجلَّ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1] [الأعراف : ١٩٩] ، قال الشّعبي ـ رحمه الله وهو من كبار التّابعين ـ : لمّا أنزلَ الله عزَّ وجلَّ هذه الآية ؛ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام : « ما تأويلُ هذه الآية يا جبريل » ؟!

قال : لا أدري حتى أسألَ العالم ؛ فصَعِدَ ثم نزل ، فقال : يا محمّد! إنَّ الله تبارك وتعالى أمرَ أن تعفوَ عمَّن ظلمكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمكَ ، وتَصِلَ مَنْ قطَعَكَ[2] .

---

(١) أخذ أحد الأدباء هذه الآية ، واستخدم من خلالها الاقتباس ، ثم الجناس الكامل فقال :

خُذِ العفوَ وأْمُرْ بعرفٍ كما أُمِرْتَ وأعْرِضْ عنِ الجاهلين
ويا صاحبَ الجاهِ كُنْ ليِّناً فمُستخسَنٌ من ذوي الجاه لين

(٢) انظر : سبل الهدى والرشاد للصالحي (٧/ ٣٢) ، وانظر هذا في كنز العمّال برقم (٥٨٢٨) ، وإحياء علوم الدين (٣/ ١٧٢) ، والجامع الصغير (١/ ٥) ، قال الألباني : ضعيف . وانظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (١٥٧٥) ، وضعيف الجامع (١/ ٦٣) برقم (٣٢) .

* إنَّ الحلمَ النّبوي ، والرَّحمةَ المحمّديّة هديَّةٌ ربانيَّةٌ جعلها الله عزَّ وجلَّ في الحبيب المصطفى ﷺ ليكون رؤوفاً بالمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، قال قتادة ـ رحمه الله ، وهو تابعي جليل القدر ـ : طهَّرَ اللهُ رسولَهُ من الفظاظة والغلظة ، وجعلهُ قريباً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً .

* لقد كان النَّبي ﷺ حليماً على اليهود ، يعاملُهم بالحلم ، فمن صورِ حلمه ﷺ على اليهود ، تلك الصُّورةُ الجميلةُ الحانيةُ التي جعلت أحد أحبار اليهود يُسلمُ مع أهله ، فقد ذكرتِ المصادرُ الحديثيَّةُ وكتبُ التّراجمِ والسِّيَرِ وغيرها عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، أنَّ زيد بن سُعْنَة ـ وهو أحد أحبار اليهود ـ قال : إنّه لم يبقَ من علاماتِ النُّبوَّةِ شيءٌ إلا وقد عرفتُها في وجه محمد ﷺ حين نظرتُ إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبقُ حلمه جهْلَهُ ، ولا تزيدُه شدَّةُ الجهلِ إلا حلماً ؛ فكنتُ أتلطَّفُ له لأن أخالطهُ فأعرف حلمه ، فابتعتُ منه تمراً معلوماً إلى أجلٍ معلوم ، وأعطيتُه الثَّمن ،

فلما كان قبل محلِّ الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيتُه فأخذتُ بمجامع قميصه وردائه ، ونظرتُ إليه بوجهٍ غليظٍ فقلتُ : يا محمد ، ألا تقضيني حقّي ؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطّلب لمُطْلٌ ، وقد كان لي بمخالطتكم عِلْمٌ ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أيّ عدوَّ الله! أتقولُ لرسول الله ﷺ ما أسمعُ ؟! فوالله لولا ما أُحاذِرُ فوتَه لضربتُ بسيفي رأسكَ ؛ ورسول الله ﷺ ينظرُ إلى عمر في سكونٍ وتؤدة وتبسُّم ، ثمّ قال : « أنا وهو كنّا أحوجُ إلى غير هذا منك يا عمر ، تأمُرني بحسنِ الأداء ، وتأمره بحسن التباعة » ، ثم قال : « لقد بقي من أجله ثلاثٌ ، اذهب يا عمر فاقْضه حقَّه ، وزِدْه عشرين صاعاً مكان ما روَّعته » ، ففعلَ عمر رضي الله عنه .

فقلتُ ـ القائلُ هو زيد بن سُعْنة ـ : يا عمر ، كلُّ علاماتِ النُّبوَّةِ قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ إلا اثنتين لم أخْبَرْهُما منه ، يسبِقُ حلمه جهله ، ولا تزيده شدّةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد خبرتهما ، فأشهدكَ أنّي رضيتُ بالله تعالى ربًّا ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ، وإنّي أشهدكَ أنَّ هذا التَّمرَ

وشطرَ مالي في فقراء المسلمين ، وأسلم هو وأهل بيته كلّهم ، إلا شيخاً غلبت عليه الشّقوة .

* وهكذا أسلمَ زيد بن سُعْنة ، وشهدَ مع النَّبي ﷺ مشاهدَ كثيرة ، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً غير مُدبرٍ ، وكان سببَ إسلامه حلم الحبيب المصطفى ﷺ[1] .

* إنَّ الحلمَ والاحتمالَ والعفو والصَّفحَ والإغضاءَ من سجايا الحبيبِ المصطفى ﷺ وأخلاقه الشَّريفة ، ولا عجبَ أن كان ﷺ كالبحر الفرات العذب ، لا يعكِّره شيءٌ ولا يُكدِّره ، ولا تنزفه الدلاء ، وما من حليمٍ إلا عُرِفَتْ منه هفوة ، وحُفِظَتْ عنه زَلَّة ، إلا الحبيبُ الأعظم ، والنَّبيُّ المُفخَّم ، محمد ﷺ ، فكان لا يزيدُه إسرافُ الجاهلين إلا

---

(١) انظر المستدرك للحاكم (٢/ ٦٠٥) ، والاستيعاب (٤/ ٦٣) ترجمة رقم (٨٤٩) ، والإصابة (٤/ ٥٤ و ٥٥) ترجمة رقم (٢٨٩٨) ، وأسد الغابة (٢/ ٢٣١ و ٢٣٢) مع الجمع والتصرف اليسير بينهما . وقد روى قصة إسلامه الطبراني ، وابن حبان ، والحاكم ، وأبو الشيخ في أخلاق النَّبي ﷺ .

حلماً وصبراً ، « وما انتقمَ لنفسه قطّ إلا أن يُنتهكَ شيءٌ من محارم الله عزَّ وجلَّ ، فينتقم منه »[1] .

* ومن روائع حلمهِ ﷺ على الجفاة الجاهلين ، ما وردَ أنّه جاءه أعرابي ذات يوم فجبَذَهُ جَبْذَةً شديدةً حتى أثَّرَتْ حاشيةُ الثَّوبِ في صفحةِ عاتقه ، ثم قال : يا محمد ، احمِلْ لي على بعيرَيَّ هذين من مال الله الذي عندك ، فإنَّكَ لا تحملُ لي من مالك ، ولا من مال أبيك! فسكتَ النَّبي ﷺ ثم قال : « المالُ مالُ اللهِ وأنا عبدُه »!! ثمّ قال : « ويُقادُ منكَ يا أعرابي ما فعلتَ بي » .

قال : لا .

قال : « لِمَ » ؟

قال : لأنَّكَ لا تكافىءُ السَّيّئة بالسيِّئة ؛ فضحكَ النَّبي ﷺ وسُرَّ من جوابه ، وأمرَ أن يُحمَلَ له على بعيرٍ شعير ، وعلى الآخر تمر .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

* وكان الحبيب الأعظمُ ﷺ حليماً على المنافقين[1] الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ، ويتملَّقونه إذا حضر ، وهذه الطِّباعُ النِّفاقيّةُ تنفرُ منها النُّفوسُ البشريَّةُ الصّافية ، ومع هذا كلّه كان ﷺ يستغفرُ لهم إلى أن نزلَ النَّهيُ الإلهيُّ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٦] فتركَ الاستغفار .

* ومن قصَصِ حلمه ﷺ على المنافقين ، ما رواه أبو الشّيخ وابن حبّان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله ﷺ جعل يقبضُ يوم حُنَيْن من فضَّةٍ في ثوب بلال ويُفرِّقُها ، فقال له رجلٌ : يارسول الله ، اعْدِلْ ، فقال : « ويحكَ مَنْ يعدِل إذا أنا لم أعدِلْ ، قد خِبْتُ وخسرتُ إذا كنتُ لا أعدل » .

فقال عمر : ألا أضربُ عُنقه ، فإنّه منافق .

---

(١) قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما : كان المنافقون من الرجال ثلاثمئة ، ومن النساء مئة وسبعين .

فقال : « معاذَ الله أن يُتحدَّثَ أنّي أقتلُ أصحابي »[1] .

* وبهذه الشَّمائلِ الحِسانِ كان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ يعاملُ النّاسَ ، ويرسمُ لهم طريقَ الحلم كي يسلكوه ، فصلَّى الله عليه وسلم ، وجعلنا من الحُلَماء .

* * *

(١) انظر : سُبل الهدى والرّشاد للصالحي (٧/ ٣٥) .

الفصلُ الثّالث

توجيهاتٌ وأحاديثُ نبويَّةٌ في الحلم

* لقد عظَّمَ الإسلامُ الحنيفُ أمرَ الحلم ، ومجَّدَ الأناة التي هي من الحلْمِ أو قرينته ، واللهُ عزَّ وجلَّ يحبُّ هاتَيْن الخَصلتَيْن : الحلم والأناة .

* أخرجَ الإمامُ مسلم في صحيحه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ لأشجّ عبد القيس : « إنَّ فيكَ خصلتَيْن يحبُّهُما الله الحلمُ والأناةُ »[1] . ويروى أنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ؛ وأخرجه أبو داود برقم (٥٢٢٥) ، وأحمد (٤/ ٢٠٥ و ٢٠٦) .

وانظر : كنز العمّال برقم (٥٨٣٦ و ٥٨٣٧) ، ومجمع الزوائد (٥/ ٦٤) ، وهذا الحديث يُبيِّنُ فضل الحلم والرفق في=

الأشجَّ قال : الحمدُ لله الذي جعلني على خُلُقَيْنِ يحبُّهما الله ورسوله ؛ وإنَّ قولَ رسول الله ﷺ للأشجِّ تفسيرٌ لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

* ومن روائع التَّوجيهات ، وبدائع الإشارات النَّبويَّة في الحلم ، ما حدثَ في عَصْرِ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ وفي مسجده الشَّريف ، وظهر منه ﷺ خُلُق الحلم بأعلى صوره ، وذلك في قصَّة الأعرابي الجاهل الذي بال في المسجد ، وهو لا يقدِّر حرمةَ المسجد .

* أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : بالَ أعرابيٌّ في المسجد ، فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النَّبي ﷺ : « دعوه ، وأريقوا على بوله سَجْلاً[1] من ماء ، فإنَّما بُعثتم ميسِّرين ، ولم تُبعثوا معسِّرين » .

* وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ، قال :

= الأمور ، وكيف أنَّ العبد إذا تمسَّكَ بهما دخل في محبَّة الله عزَّ وجلَّ .

(١) « السَّجْلُ » : الدّلو المملوء ماء .

بينما نحنُ في المسجد مع رسول الله ﷺ ، إذ جاء أعرابي فقام يبولُ في المسجد ، فقال أصحابُ رسول الله ﷺ : مَهْ مَهْ ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تُزْرموه[1] دعوه » ؛ قال أنس : فتركوه حتى بال ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له : « إنَّ هذه المساجد لا تصلحُ لشيءٍ من هذا البول والقذر ، إنَّما هي لذكر الله ، والصلاة ، وقراءة القرآن » .

قال أنس : وأمرَ رجلاً من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فشنَّه عليه .

* وهكذا علَّمَ الحبيبُ الأعظمُ أصحابَه كيف يكون الحلم بالجاهلين ، وأرشدهم إلى كيفية الرِّفق بهم ، وعلَّمهم كيف يجب أن يكون الحلم بالدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ ، وأن يكونوا ميسِّرين لا معسِّرين ، كما تظهرُ حكمةُ النَّبي ﷺ لهذا الأعرابي الجاهل بآداب المسجد ، وتدلُّ أيضاً على حلمه ﷺ ، وعلى رِفْقِه وحسن سياسته مع ألوان النّاس وأشكالهم ، وهذا هو

---

(١) « لا تُزرموه » : أي لا تقطعوا عليه بوله .

الخُلـقُ العظيـم ، خُلُـقُ الحلـم الـذي مَلَـكَ بـه ﷺ قلـوبَ أصحابه ، وقلوبَ النّاس أجمعين .

* والحلمُ ينبوعٌ ثَرٌّ عند الحبيب الحليم المصطفى ﷺ ، فقد كان حلمُه حلماً عظيماً في أقسى حالات الشدَّة التي واجهها من قِبَلِ قومه ، ومع هذا لم يَدْعُ على الذين آذوه منهم في الوقت الذي كان باستطاعته أن يدعوَ عليهم فيهلكهم الله عزَّ وجلَّ .

* فالرسول ﷺ هو الكامل الحليم ، فقد كان ينظر إلى الغد القريب ، فهو يحلُم على قومه ، فلعلَّهم بعد مدّةٍ يؤمنون فينجون من النَّار ، فيحلُم بهم رجاء إصلاحهم .

* ومَنْ منّا لا يعرفُ ما لاقاه الحبيبُ الأعظمُ محمد ﷺ عندما سعى إلى الطّائف لتبليغ رسالته إلى ثقيف ، فصدُّوه وسخروا منه ، وخافوا على أحداثهم وشبابهم من دعوته ، وقالوا له : يا محمد ، اخرج من بلدنا ، والْحَقْ بمحابّك من الأرض .

* فقامَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ ، وقد يئسَ من خيرهم ،

وزادوا في فجورهم ، إذ أغروا عبدانهم وسفهاءهم يسبُّونه ، ويصيحون به سخريةً واستهزاءً ، حتى جمعوا غوغاءهم وأشرارهم ، وقعدوا له صفَّيْن على طريقه ، فصاروا يرضخونه بالحجارة حتى أخضبت نعلاه بالدماء ، إلى أن خرجَ من الطائف ، واطمأنَّ ، ثم إنَّه دعا الله عزَّ وجلَّ بهذه الكلمات المنيرات العظيمات ، فقال : « اللهمَّ إنّي أشكو ضعف قوّتي ، وقِلَّةَ حيلتي ، وهواني على النّاس ، يا أرحم الرَّاحمين ، أنتَ ربُّ المُستضعَفين ، وأنتَ ربّي ، إلى مَنْ تكِلُني ؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني ، أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمري ؟ إن لم يكن بكَ عليَّ غضبٌ فلا أُبالي ، ولكنَّ عافيتَكَ هي أوسعُ لي ، أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشرقَتْ له الظُّلُمات ، وصلح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة من أن تُنزِلَ بي غضبكَ ، أو يحلَّ عليَّ سخطكَ ، لكَ العُتبى حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بكَ » .

* تُرى ، أيُّ حُلُمٍ كان ، وأيُّ صَفْحٍ كان صفحُه ﷺ ؟! هذا ما سنقرؤه في الحديث التّالي :

* أخرج البخاري في بَدْءِ الخَلْق ؛ ومسلم في المغازي ، والنّسائي في البعوث ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، أنّها قالت للنبيِّ ﷺ : هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ عليكَ من يوم أُحُد ؟

فقال النَّبي ﷺ : « لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشدّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفِقْ إلا وأنا بقرنِ الثّعالب ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليه السَّلام ، فناداني فقال : إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومكَ لكَ ، وما ردُّوا عليكَ ، وقد بعثَ إليكَ مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئت فيهم ، فناداني مَلَكُ الجبال : قد بعثني إليكَ ربُّكَ لتأمرني بما شئتَ ، وإن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبَيْن ؛ فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابهم مَنْ يعبدُ الله وحده لا يُشركُ به شيئاً » .

* هذا هو الحلمُ النَّبوي ، وهذه هي الأخلاقُ المحمّديّة

التي زيَّنَتْ وجه الدُّنيا ، وجيدَ الدَّهر بمآثرها وآثارها الحِسان .

* ومن الأدعية النَّبويَّة التي وردت في الحلمِ أنَّه كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهمَّ أغنني بالعلم ، وزيِّني بالحلم ، وأكرمني بالتّقوى ، وجَمِّلني بالعافية »[1] .

* وأورد الغزالي ـ رحمه الله ـ في « الإحياء » جملةً من الأحاديث النَّبويّة التي ترشدُ إلى التخلُّقِ بالحلم ، ومنها :

« ابتغوا الرِّفعة عند الله » ؛ قالوا : وما هي يارسول الله ؟ قال : « تَصِل مَنْ قطَعَكَ ، وتُعطي مَنْ حرَمَكَ ، وتحلُم عمّن جَهِلَ عليكَ »[2] .

وقال : « خمسٌ من سنن المرسَلين : الحياء ، والحلم ، والحجامة ، والسِّواك ، والتَّعطُّر »[3] .

---

(١) هذا الحديث أورده السُّيوطي في جمع الجوامع (١/ ٣٨٠) ، وعزاه إلى الرافعي عن ابن عمر ؛ وانظر الإحياء (٣/ ١٧٦) .
(٢) الإحياء (٣/ ١٧٧) .
(٣) الإحياء : (٣/ ١٧٧) .

وقال : « إنَّ الرَّجلَ المسلمَ ليُدركُ بالحلمِ درجةَ الصَّائمِ القائم »[1] .

* وللحلم مساحةٌ كُبرى في الحديث النَّبوي ، وقد أبان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ صفات الحليم فيما أخرجه أحمد والتّرمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال النَّبي ﷺ : « لا حليمَ إلا ذو عَثَرة ، ولا حكيمَ إلا ذو تجربة »[2] .

* وعلَّقَ أبو حاتم البُسْتي على هذا الحديث فقال :

---

(١) جمع الجوامع (١/١٩٨) ، قال الألباني : ضعيف . انظر ضعيف الجامع برقم (١٤٥٣) ؛ وسلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (٣٠٠٢) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨ و ٦٩) ، والترمذي في البرّ والصِّلة برقم (٢٠٣٣) ، وابن حبّان في الموارد برقم (٢٠٧٨) ، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٥٦٥) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٣) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٢٤) .

إنَّ العربَ تضيفُ إلى الشَّيء للقربِ من التَّمام ، وتنفي الاسم عن الشَّيء للنَّقصِ عن الكمالِ ، فلمّا كان الغالبُ على المرءِ ألا يكون حليماً حتى يكونَ ذا عثرة ، نفى النَّبي ﷺ اسمَ الحليم عمَّنْ لم يكن بذي عثرة ، لنقصه عن الكمال . فالحليم عظيم الشَّأنِ ، رفيعُ المكانِ ، محمودُ الأمر ، مرضيُّ الفعلِ . والحلم : اسمٌ يقعُ على ذمِّ النَّفسِ عنِ الخروجِ عند الورود عليها ضدَّ ما تُحبُّ ، إلى ما نُهي عنه ، فالحلمُ يشتملُ على المعرفةِ والصَّبرِ والأناةِ والتَّثبُّتِ ، ولم يقرن شيءٌ إلى شيءٍ أحسنُ من عفوٍ إلى مقدرة ، والحلمُ أجملُ ما يكون من المقتدر على الانتقام[1] .

* * *

(١) روضة العقلاء (ص ٣٤٥) .

الباب الثالث

من وصايا الصحابة والتابعين بالحلم

الفصلُ الأوَّل : من وصايا وأقوالِ الصَّحابةِ في الحلم .

الفصلُ الثَّاني : الحلمُ في حياةِ التَّابعين ووصايا العلماء .

الفصلُ الأوّلُ

مِنْ وَصايَا وأقْوالِ الصَّحابَةِ في الحِلْمِ

* أبو الدَّرداءِ عُوَيْمِرُ بنُ زيدٍ الأنصاري الخزرجي[1] أحدُ الصَّحابةِ الكرام الذين اشتهروا بالعلم والحلم والحكمة ، قال النّووي ـ رحمه الله ـ : كان أبو الدَّرداء فقيهاً حكيماً زاهداً . . . ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان . . . وكانت له امرأة اسمها هُجيمة ، وكانت فقيهة حكيمة[2] .

* وقد أُثِرَتْ عن أبي الدَّرداء ـ رضوان الله عليه ـ وصايا

---

(١) اقرأ سيرته مفصَّلةً في كتابنا وموسوعتنا « علماء الصحابة » تجد خيراً بإذن الله .

(٢) انظر : تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/ ٥١٢) ، رقم الترجمة (٧٨٠) باختصار .

وأقوال في الحلم ، ومنها قوله : ليسَ الخيرُ أن يكثرَ مالك وولدك ، ولكنّ الخيرَ أن يعظم حلمك ، ويكثر علمك ، وأن تنادي النّاسَ في عبادةِ اللهِ ، فإذا أحسنتَ حمدتَ الله ، وإذا أسأتَ استغفرتَ الله .

* وذكرَ ابنُ عبد ربّه حلم أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، ودفعه السيِّئة بالتي هي أحسن ، فقال : قال رجلٌ لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه : واللهِ لأسُبنَّكَ سَبًّا يدخلُ القبرَ معك ، قال : معكَ يدخلُ لا معي[1] .

* وعُرِفَ عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ بالحلم وسَعَةِ الصَّدر ، وسرعة البديهة ؛ فقد قال له رجل : واللهِ لأتفرَّغَنَّ لكَ . قال عمرو : هنالك وقعتَ في الشُّغل .

قال : كأنَّكَ تُهدِّدني ، والله لئن قلتَ لي كلمةً لأقولنَّ لك عشراً .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٥) ، والمستطرف (١/ ١٩٤) .

قال عمرو : وأنتَ والله لئن قلتَ لي عشراً لم أقل لكَ واحدة[1] .

* وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يتحلَّمُ ، فقد شتمَهُ رجلٌ فقال له أبو ذرّ : يا هذا ، لا تُغْرِقْ في شتمنا ، ودَعْ للصُّلح موضعاً ، فإنّا لا نكافىء مَنْ عصى الله فينا بأكثرَ من أنْ نُطيعَ اللهَ فيه[2] .

* ومن ذلك أنَّه رضي الله عنه ، قال لغلامه : لِمَ أرسلتَ الشَّاةَ على علفِ الفرس ؟

قال : أردتُ أن أغيظَكَ .

قال أبو ذرّ : لأجمعَنَّ أجراً ، أنتَ حُرٌّ لوجه الله[3] .

* وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يوصي بالابتعاد عن السَّفَه ، وعمّا يؤذي من الكلام فيقول : إذا سمعتَ الكلمة تؤذيك ، فطأطىء لها حتى تتخطّاك .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٥) .
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٧٦) .
(٣) المستطرف (١/ ١٩٣) .

* وقال أيضاً : تعلَّموا العلم ، وتعلَّموا للعلم السكينة والحلم .

* وقال : لا حلم أحبّ إلى الله من حِلْمِ إمامٍ ورفقته ، ولا جهل أبغض إلى الله من جَهْلِ إمامٍ وحدّته .

* وقال أيضاً : من اتَّقى الله لم يشفِ غيظه .

* ويُحكى عن حلمه رضي الله عنه ، أنّه أُحْضِرَ بين يديه رجلٌ سكران ، فأمرَ أن يُمَدَّ ، فشتمه السَّكرانُ ، فرجع عمر عنه ، فقيل له : لم تركته يا أمير المؤمنين لمّا شتمك ؟ قال : لأنّه لمّا شتمني غضبتُ ، فلو ضربتُه لكان ذلك لغضبي لنفسي لا لربّي[1] .

* وقال عليّ رضي الله عنه : ليس الخير أن يكثرَ مالكَ وولدكَ ، ولكنَّ الخيرَ أن يكثرَ علمُكَ ، ويعظُمَ حلمُكَ .

* وقال : إن لم تكن حليماً فتحلَّم ، فإنّه قَلَّ مَنْ تشبَّه بقومٍ إلا أوشكَ أن يكون منهم .

---

(١) المستطرف (١/ ١٩٤) بتصرف يسير .

* والحلمُ في رأي عليّ رضي الله عنه سجيَّةٌ يتحمَّلها الحليم ، حيث يحتاج إلى عوض ، ودائماً يوصي بالحلم ، راجياً أن يتخلَّقَ الإنسانُ بأخلاقِ الحُلماء فيصير منهم ، لأنَّ العادةَ طبيعةٌ ثانية ، ولذلك يقول : أولى النّاس بالعفو ، أقدرهم على العقوبة .

* وقال : إذا قدرتَ على عدوِّكَ ، فاجعلِ العفوَ عنه شكراً للقدرة عليه .

* وأوردَ القلقشندي خطبةً للحُسين بن عليّ رضي الله عنهما ، يقولُ فيها : اعلموا أنَّ الحلمَ زينٌ ، والوقارَ مودَّةٌ ، والصِّلَةَ نِعمةٌ ، والإكثارَ صلفٌ ، والعجلةَ سَفَهٌ ، والسَّفهَ ضعفٌ ، والقلقَ ورطةٌ ، ومجالسةَ أهلِ الدَّناءةِ شَيْنٌ ، ومخالطةَ الفسوقِ ريبةٌ[1] .

* ويُحكى أنَّ رجلاً سَبَّ ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ،

---

(١) صبح الأعشى (١/ ٢١٥) .

فلمّا فرغَ قال : يا عِكْرِمَةُ ، هل للرَّجُلِ حاجةٌ فنقضيها ؟ فنكَسَ الرَّجلُ رأسَهُ واستحى .

* وقال النَّابغةُ الجعدي :

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لم يكنْ له بوادرُ تحمي صفوَهُ أن يُكَدَّرا

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكنْ له حليمٌ إذا ما أوردَ الأمر صَدّرا

ولمّا أنشدَ هذَيْن البيتَيْن للنَّبيّ ﷺ قال : « لا يفضُضِ اللهُ فاكَ » ، قال : فعاشَ مئة وثلاثين سنة ، لم تَنْغَضْ له ثنيَّة[1] .

* وكان معاوية رضي الله عنه وأرضاه ، يُعرَفُ بالحلم ، وله فيه أخبارٌ مشهورةٌ ، وآثارٌ مذكورةٌ ، وكان يقول : إنّي لأستحي من ربِّي أن يكونَ ذنبٌ أعظمَ من عفوي ، أو جهلٌ أكبرَ من حلمي ، أو عورةٌ لا أواريها بستري[2] .

* وقال أيضاً : لا يبلغُ الرَّجلُ مبلغَ الرَّأي حتى يغلبَ

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٠) ، و « تنغض » : تضطرب وتتحرك .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٧٨) .

حلمُه جَهلَهُ ، وصبرُه شهوتَه ، ولا يبلغُ ذلك إلا بقوَّةِ الحلم .

* وقال : عليكم بالحلم والاحتمال ، فإذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصَّفحِ والإفضال .

* وكان معاوية رضي الله عنه ، يعلمُ أنَّ الحلمَ لا يأتي إلا بخير ، فكان يوصي قومَه قائلاً : يا بني أُميَّة ، قارعوا قريشاً بالحلم ، فوالله إن كنتُ لألقى الرَّجلَ من الجاهليَّةِ يوسعني شتماً ، وأوسعه حلماً ، فأرجعُ وهو لي صديق أستنجدُه فيُنجدني ، وأثيرهُ فيثور معي ، وما دُفِعَ الحلمُ عن شريفٍ إلا شرَّفَهُ ، ولا زادَه إلا كرماً .

* ومن روائع وصايا معاوية رضي الله عنه ، إلى ابنه يزيد قوله له : عليكَ بالحلم والاحتمال حتى تمكِّنكَ الفرصة ، فإذا أمكنتك فعليك بالصَّفح ، فإنَّه يدفعُ عنكَ معضلاتِ الأمورِ ، ويقيكَ مصارعَ المحذور .

* وقال : ما وجدتُ لذَّةً هي عندي ألذّ من غيظٍ أتجرَّعُه ، وسَفَهٍ بحِلْمٍ أدفعُه .

* وقال أيضاً : أفضلُ ما أُعطيَ الرَّجلُ الحلمُ[1] .

* وممّا حُفِظَ عن عبد الله بن مسعود في الحلم قوله :

انظروا إلى حلم الرَّجلِ عند غضبه ، وأمانته عند طمعه .
وما عِلْمُكَ بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمُكَ بأمانتِهِ إذا لـ
يطمَعْ .

* هذا وآثارُ الصَّحابةِ الكِرامِ رضوان الله عليهم كثيرةٌ في
التَّخلُّقِ بالحلم ، والتَّمثُّلِ به في جميع الأوقات والأحوال
وقد تلقّوا هذه الدُّروس العظيمة في الحلم من الحبيب
الأعظم ﷺ ، فكانوا سادة القادة ، وقادة السَّادة ، ونجوم
زواهر في سماء الأعلام فرضي الله عنهم وأرضاهم .

* * *

---

(١) انظر : نهاية الأرب (٦/ ٥٠) .

الفصلُ الثّاني

الحِلْمُ في حَياةِ التّابعينَ وَوَصايَا العُلَماء

* أجمعَ عددٌ من كبارِ التّابعين ، وأكابرِ العُلماءِ على أنَّ أفضلَ الأعمال : الحلمُ عند الغضب ، والصَّبرُ عند الجزع .

* وقد أُثِرَتْ عن التّابعيّ الجَليل الحسنِ البصري ـ رحمه الله ـ أقوالٌ مأثورةٌ ، وحِكَمٌ منثورةٌ في هذا المجال ، فممّا أورده الغزالي ـ رحمه الله ـ من أقواله في « الإحياء » ، قوله : من علامات المسلم : قوّةٌ في دين ، وحزمٌ في لين ، وإيمانٌ في يقين ، وعلمٌ في حلم ، وكيسٌ في رفق ، وإعطاءٌ في حق ، وقصدٌ في غنى ، وتحمُّلٌ في فاقة ، وإحسانٌ في قدرة ، وتجمُّلٌ في رقاقة ، وصبرٌ في شدّة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمعُ به الحمية ، ولا تغلبُه شهوة ،

ولا تفضحهُ بطنة ، ولا يستخِفُّه حرصه ، ولا تقصِّر به نيَّتُه ، فينصرُ المظلوم ، ويرحمُ الضعيف ، ولا يبخلُ ولا يُبذِّر ، ولا يُسرفُ ولا يُقتِّر ، يعفو إذا ظُلِمَ عن الجاهل ، والجاهلُ نفسه منه في عناء ، والنّاسُ منه في رخاء[1] .

* وممّا حُفِظَ عنه قولُه : إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ : مَنْ كان له على الله أجرٌ فليَقُمْ ، فلا يقومُ إلا العافون عنِ النّاس[2] .

* وكان الحسنُ البصري ـ رحمه الله ـ يرى أنَّ الحلمَ خيرُ رداءٍ يرتديه المرءُ ، بل هو أفضلُ من بُردِ الحَبرة[3] ، وفي هذا يقول : إنَّ أفضلَ رداءٍ تردّى به الإنسان الحلم ، وهو والله عليكَ أحسنُ من بُرْدِ الحَبِرة .

* وقال : المؤمنُ حليمٌ لا يجهلُ ، وإن جُهِلَ عليه ، وتلا

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٦) .
(٢) المستطرف (١/ ١٨٧) .
(٣) « الحبرة » : ثوبٌ يمانيٌّ من قطنٍ أو كتّانٍ مخطَّط ، يقال : بُرْدٌ حَبِرة على الوصف ، وبردُ حَبِرة على الإضافة .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾

[الفرقان : ٦٣] .

* وقال أيضاً : اطلبوا العلمَ وزيِّنوه بالوَقارِ والحِلْم .

* وكان الشَّعبيُّ ـ رحمه الله ، وهو تابعيٌّ جليلُ القَدْر ـ مشهوراً بالحلم ، معروفاً بهذه الخصلة بين النّاس ، حتّى عُدَّ من أسيادِ الحُلماء ، فقد شتمَه رجلٌ ، فقال له الشَّعبي : إن كنتَ صادقاً فغفرَ اللهُ لي ، وإن كنتَ كاذباً فغفرَ اللهُ لكَ[1] .

ولذلك فقد كان رحمه الله كثيراً ما يُنشدُ ويتمثَّلُ قول القائل :

ليستِ الأحلامُ في حالِ الرِّضا إنّما الأحلامُ في حالِ الغَضَبِ

* وللأحنفِ بن قيس ـ رحمه الله ـ وقفاتٌ رائعاتٌ مع الحلم ، فقد كان هو نفسُه من أشهرِ حُلماءِ عَصْرِ التَّابعين ، وله أقباسٌ جميلةٌ في هذا المعنى ، وكان لشدَّةِ ذكائه وحلمه

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٦) .

يبتعدُ عن مواطنِ السَّفَه ، وساقط الكلام ، فكان يقول : حلمُكَ على السَّفيه يُكثرُ أنصارك عليه . ويقول : مَنْ لم يصبِرْ على كلمةٍ سمعَ كلمات .

* وكان ـ رحمه الله ـ يرى أنّ احتمالَ بعضِ الكلماتِ ، وتجرُّعَ بعض الغيظ من الحلم ، لئلاّ ينزلقَ إلى ما هو أشدّ وأنكى ، ولذلك كان يُكثرُ من قوله : رُبَّ غيظٍ تجرَّعتُه مخافةَ ما هو أشدَّ منه ، وأنشدَ :

رضيتُ ببعضِ الذُّلِّ خوفَ جميعهِ
كذلك بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعضِ[1]

* ولمّا سُئِلَ الأحنفُ عن الحلمِ أجابَ : قولٌ إن لم يكن فعل ، وصمتٌ إن ضرَّ قول .

* وكان يرى أنَّ للحلمِ آفةً فيقول : آفةُ الحلمِ الذُّلُّ .

* أمّا كيف يُعرَفُ الحليمُ ، فلا بُدَّ في رأيه من سفيه ، وفي هذا المعنى قال : لا حِلْمَ لمَنْ لا سفيه له .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٩) .

* وقال أيضاً : ما قَلَّ سُفهاءُ قومٍ إلا ذُلُّوا ، وأنشدَ :

لابُـدَّ للسُّـؤددِ مـن رِمـاحِ ومن رجالٍ مُصلتي السِّلاحِ
يُـدافعـونَ دونَـه بـالـرَّاحِ ومـن سفيـهٍ دائـمِ النّبـاحِ[1]

* وكان يرى أنَّ الحلمَ أكبرُ معينٍ وناصر ، ويقول : وجدتُ الحلمَ أنصَرَ لي من الرِّجال . وكان يقول : ما نازعني أحدٌ قطُّ إلا أخذتُ أمري بإحدى ثلاث :

إن كان فوقي عرفتُ قَدْرَه ، وإن كان دوني أكرمتُ نفسي عنه ، وإن كان مثلي تفضَّلتُ عليه .

* وأخذَ بعضُ الشُّعراء هذا المعنى فنظمه قائلاً :

إذا كـان دونـي مَـنْ بُليـتُ بجهلِـهِ
أبيـتُ لنفسـي أن تُقـارعَ بـالجَهْـلِ
وإن كـان مثلـي ثـمَّ جـاءَ بـزلَّـةٍ
هويتُ لصفحي أن يُضافَ إلى العَدلِ

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٨٠) .

وإن كنتُ أدنى منه قَدْراً ومَنْصباً
عرفتُ له حقَّ التَّقدُّمِ والفَضْلِ[1]

* ولمحمد بن علي بن أبي طالب ـ رحمه الله ـ أقوالٌ رائعةٌ في الحلم ، حيثُ يرى أنَّ الحلمَ وقايةٌ من كلِّ شرٍّ ، وهو رأسُ مكارمِ الأخلاق ، فقال : مَنْ حَلُمَ وقى عِرضه ، ومَنْ جادَتْ كفُّه حَسُنَ ثناؤه ، ومَنْ أصلَحَ ماله استغنى ، ومن احتملَ المكروه كَثُرَتْ محاسِنُه ، ومَنْ صبرَ حُمِدَ أمرُه ، ومَنْ كظمَ غيظَهُ فشا إحسانُه ، ومَنْ عفا عنِ الذُّنوبِ كَثُرَتْ أياديه ، ومَنْ اتَّقى اللهَ كفاهُ ما أهمَّه[2] . ولله درُّ من قال :

وكن مَعْدِناً للحلمِ واصفَحْ عنِ الأذى ... فإنَّكَ راءٍ ما عملتَ وسامعُ
وأحبِبْ إذا أحببتَ حُبًّا مقارباً ... فإنَّكَ لا تدري متى أنتَ نازعُ
وأبغِضْ إذا أبغضتَ غيرَ مُباينٍ ... فإنَّكَ لا تدري متى أنتَ راجعُ

* * *

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٣) .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٨٤) .

الباب الرابع

الحلم وبعض مكارم الأخلاق

الفصلُ الأوَّلُ : الحلمُ والسّؤدد .

الفصلُ الثَّاني : الحلمُ وكَرَمُ النَّفسِ .

الفصلُ الأوّلُ

الحِلْمُ والسُّؤْدُد

* قالَ سابق البربري في سؤدد الحليم :

ألـمْ تَـرَ أنَّ الحلـمَ زيـنٌ مُسَـوِّدٌ لصاحبِهِ والجهل للمرءِ شائنُ
فكُنْ دافناً للجَهْلِ بالحلمِ تَسْتَرِحْ منَ الجهلِ إنَّ الحلمَ للجَهْلِ دافِنُ

* منذُ أن فطرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ ، جعلَ الحلمَ دليلاً على أخلاقه ؛ وقد أدركَ العربُ قديماً مكانةَ وقيمة هذا الأدبِ العظيم ، وجعلوه مفتاحَ أعمالهم وسؤددهم ، فقد كان العربُ في الجاهلية يختارون رئيسهم وقائدهم من ذوي الأحلام مع شجاعته ، قال محمد بنُ كنانة : إنَّ أهلَ الجاهليَّةِ لم يكونوا يُسوِّدونَ رجلاً ، حتى يكونَ حليماً ، وإن كان شجاعاً سخيًّا .

* وقال الكلبي : ما كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يشرفون بيسار[1] ، ولا شجاعةٍ ، ولكن حلمٌ وسخاء .

* وكانوا يتواصون فيما بينهم بالحلمِ والتحلُّمِ ، كما يوصون بالعلم ، وقد حُفِظَ من حِكَمِ لقمان لابنه أنَّه يوصيه بالحلم الذي يُزيِّنُ العلم ، وفي ذلك يقول : يا بُنيّ ، العلمُ حَسَن ، وهو مع الحلم أحسن .

* وقال لابنه أيضاً : أي بُنيّ ، حليمٌ في صورته خيرٌ من صورةٍ لا حلمَ له . وقال له أيضاً : حليمٌ كلّما لقيكَ قرعكَ بعصاه ، خيرٌ من سفيهٍ كلّما لقيكَ سرَّك .

* وقال لقمان أيضاً : إذا أردتَ أن تؤاخيَ رجلاً فأغْضِبْهُ ، فإن أنصفكَ في غضبه ، وإلا فَدَعْهُ[2] .

* وكانت العربُ ترى أنَّ طاعةَ الحليم والائتمار بأمره

---

(١) « اليسار » : الغنى والثراء والمال .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٨٥ و ٢٨٦) .

نجاحٌ وفَلاحٌ ؛ والمرءُ لن يبلغَ السُّؤدُدَ إذا تبعَ هواهُ ، قال الشَّاعر :

وإذا استشارَكَ مَنْ تودُّ فقُلْ له أطِعِ الحليمَ إذا الحليمُ نهاكا
واعلم بأنَّكَ لن تسودَ وأن ترى سُبُلَ الرَّشادِ إذا أطعتَ هواكا

* وكان سلم بنُ نوفل سيِّدُ بني كنانة ، فوثبَ رجلٌ على ابنه وابنِ أخيه فجرحهما ، فأُتِيَ به ، فقال له : ما أمَّنَكَ من انتقامي ؟

قال : فلِمَ سَوَّدْناكَ إذاً ، إلا أن تكتُمَ الغيظ ، وتحلُمَ عنِ الجاهلِ ، وتحتملَ المكروه ؟! فخلَّى سبيلَه ، فقال فيه الشَّاعر :

يُسَـــوَّدُ أقـــوامٌ وليســـوا بســـادةٍ
بلِ السَّيِّدُ الصِّنديدُ سلم بن نوفل[1]

* ويرى بعضُ العربِ أنَّ الحلمَ ذِلَّةٌ في بعضِ المواطن ، إذ ربما يتعرَّضُ الحليمُ إلى بعض السُّفهاء ، وعندها تظهرُ

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٨) .

ماهيةُ الحلم وحقيقتُه ، وسؤددُ الحليم وعِزُّه ، وفي هذا يقولُ سالم بن وابصةَ الأسدي :

أرى الحلمَ في بعض المواطنِ ذُلَّةً ... وفي بعضها عِزًّا يُشرّفُ فاعلُه
إذا أنتَ لم تدفَعْ بحلمِكَ جاهلاً ... سفيهاً ولم تقرن به مَنْ تجاهلُه
لبستَ له ثوبَ المذلَّةِ صاغراً ... وأصبحتَ قد أودى بحقِّكَ باطلُه
تخلَّقْ على جُهَّالِ قومِكَ إنّه ... لكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه

* وقد أُثِرَ عن عليّ بن الحُسين أنَّه قال : كان يُقال : السُّؤددُ الصَّبْرُ على الذُّلِّ .

* ولعلَّ المعنى هنا التحلُّمُ على الجاهلين ، إذ الحلمُ زينةٌ للمرءِ ، كما قال الشَّاعر :

الحلمُ زينٌ والتَّقيُّ كريمٌ ... والصَّبرُ خيرُ مراكبِ الصَّعْبِ

* فالمرءُ الحليمُ لا يرى الحلمَ زينةً له فيعطيه للجهول ، وقد شبَّهوا الجهولَ السَّفيهِ بالكلبِ ؛ قال كعبُ الأحبار : إنَّ لكلِّ قومٍ كلباً فاتَّقيه لا يتَّصِلَنَّ بكَ شَرُّهُ .

* والحليمُ يرى في الحلمِ أحلى عاقبة ، فالحلمُ أنفعُ شيءٍ

للمرءِ ، وما أجملَ أن يقتعدَ الإنسانُ سُدَّةَ المجدِ وهو يتحلّى بالحلم :

يا حبَّذا الحلمُ ما أحلى مغبَّتَهُ جـدًّا وأنفعـهُ للمـرءِ مـا عـاشـا

* قال عبدُ الملك بنُ صالح : الحلمُ يحيا بحياةِ السُّؤدُد .

ولهذا عرفَ النّاسُ سؤدُدَ معاوية رضي الله عنه وأرضاه بحلمه ، فقد وردَ أنَّ رجلاً أسمعَهُ كلاماً شديداً ، فقيل له : لو عاقَبْتَهُ ؟ فقال : إنّي لأستحي أن يضيقَ حلمي عن ذنبِ أحدٍ من رعيَّتي .

* ولهذا فإنَّ معاويةَ رضي الله عنه قد وصلَ إلى الشَّرفِ وإلى السُّؤدُدِ الذي أراده من رعيَّته ، لما كان منه من حلمٍ وأناةٍ وصبر ، ولهذا قيل : مَنْ حَلُمَ شَرُف ، وقالتِ العرب : لا سُؤدُدَ مع الانتقام .

* وكان معاويةُ رضي الله عنه ، يُدركُ أنَّ السُّؤدُدَ بالحلم ، فقد سألَ مرَّةً عرابةَ بن أوسٍ فقال : يا عرابة ، بِمَ سُدْتَ قومكَ ؟

قال : كنتُ أحلمُ عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم .

* وورد أيضاً أنَّ معاوية سألَ بني طيىء : مَنْ سيِّدكُم ؟

قالوا : خُريم بن أوس ؛ من احتملَ شَتْمنا ، وأعطى سائلنا ، وحَلُمَ عن جاهلنا .

* وقالت أهلُ الحِكَمِ : لا يظهرُ الحلمُ إلا مع الانتصارِ ، كما لا يظهرُ العفو إلا مع الاقتدارِ .

* وقيل : إنَّ الله سمَّى يحيى عليه السَّلام سيِّداً لحلمه[1] .

* ورُويَ أنَّ الرَّشيدَ قال لأعرابي : بِمَ بلغَ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة ؟

قال : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله عن ضعيفنا ، لا منّانَ إذا وهَبَ ، ولا حقودَ إذا غضب ،

---

(١) أدبُ الدُّنيا والدِّين (ص ٤٠٠) ؛ والآية الكريمة هي : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

رَحْب الجنان ، سمح البنان ، ماضي اللسان .

قال : فأومأ الرَّشيدُ إلى كلبِ صيدٍ كان بين يديه وقال : واللهِ لو كانت هذه الخصال في هذا الكلب لاستحقَّ بها السُّؤدُدَ[1] .

* ومن أمثال العرب : احلم تَسُدْ . قال الشَّاعر :

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا ... حتّى يـذلَّ وإن عـزّوا لأقـوامِ
ويُشتمـوا فترى الألـوانَ مُسْفِرةً ... لا صَفْحَ ذُلٍّ ولكن صَفْحَ إكرامِ

* وقال آخر وقد عُرف بالسُّؤدُد :

وجهلٍ ردَدْناهُ بفضلة حلومنا ... ولو أنّنا شئنا ردَدْناهُ بالجهلِ

* وقال أحدُ البُلغاء :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّن أهلَه ... مع الحلمِ في عَيْنِ العدوِّ مهيبُ
إذا ما تراءاه الرِّجالُ تحفَّظوا ... فلم ينطقِ العوراءَ وهو قريبُ

---

(١) المستطرف (١/ ١٩٤) .

* وسُئِلَ الأحنفُ بن قيس ، فقيل له : ما الحلم ؟

قال : أن تصبرَ على ما تكره قليلاً .

* وقال وهبُ بنُ منبّه : مكتوبٌ في الحكمة : قَصْرُ[1] الغايات ثلاث : قصرُ السَّفَهِ الغضبُ ، وقَصْرُ الحلمِ الرَّاحة ، وقصرُ الصَّبرِ الظّفر .

* إنَّ السِّيادةَ تُنالُ بالتَّرفُّقِ والتَّأنّي والحلم ، وذو السُّؤدُدِ لا يعجلُ بسبابٍ أو بذاءةٍ ، وهكذا فالحلم زينٌ للفتى ، يرفعُ مقامَه ومكانته ، وهو أحسنُ عاقبة ، وخيرٌ منقلباً ، ولا فظاظة إلا مع المعتدي الظّالم الغاشم :

إذا شئتَ يوماً أن تسودَ عشيرةً فبالحلمِ سُدْ لا بالتّسرُّعِ والشَّتمِ
وللحلمِ خيرٌ فاعلمنَّ مغبَّةً من الجهل إلا أن تسمَّر من الظلم

* وفي نصائح لقمانَ لابنه تظهرُ فضيلة الحلم المرتبطة

---

(١) أي : نهاية الأمور .

بالسِّيادة والسُّؤدُد ، وقد بدأ إحدى نصائحه لابنه بالحلم فقال :

يا بنيَّ عليكَ بخلالٍ إن تمسَّكْتَ بهنَّ لم تزلْ سيِّداً :

ابسِطْ حلمَك للغريب والقريب ، وأمسِكْ جهلكَ عن الكريمِ واللَّئيم ، واحفظ إخوانكَ ، وصِلْ أقاربكَ ، وليكن خلالكَ من إذا فارقتهم وفارقوكَ لم تبِعْهُم ولم يبيعوكَ[1] .

* * *

(١) انظر : الجليسُ الصَّالح الكافي (٤/ ١٢٢) ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ١٩٩٣ م .

الفصلُ الثَّاني

الحلمُ وكرمُ النَّفس

* لعلَّ ارتباطَ الحلمِ بكرمِ النَّفسِ يُبيِّنُ لنا مكانةَ الحلم في عالمِ الأخلاقِ ، لأنَّ كرمَ النَّفسِ يدلُّ على عُلوِّ الهِمَّة ، والعاقلُ مَنْ عرَفَ قَدْرَ نفسه ، وتوقَّفَ عند ذلك وحَلُم .

* ذكرَ عمر بن حفص بن غياث عن أبيه قال : كنتُ جالساً عند جعفر بن محمد ، ورجلٌ يشكو رجلاً عنده يقول :

قال لي كذا ، وفعل بي كذا ، فقال له جعفر : مَنْ أكرمكَ فأكرمه ، ومن استخفَّ بكَ فأكرِمْ نفسكَ عنه[1] .

---

(١) روضة العقلاء (ص ٣٤٩) .

* إنَّ كريمَ النَّفسِ يجعلُ الحلمَ شعارَه ، والأناةَ دِثارَه ، فإذا ما ثارت ثائرتُه يتذكَّرُ ويذكرُ حلم الله تعالى ، يقولُ أبو حاتم البستي : الواجبُ على العاقل إذا غضبَ واحتدَّ أن يذكرَ حلمَ الله عنه ، مع تواتر انتهاكه محارمه ، وتعدّيه حُرماته ، ثم يحلمُ ، ولا يخرجه غضبه إلى الدُّخولِ في أسباب المعاصي ، والنَّاسُ على ضروبٍ ثلاثة :

رجلٌ أعزُّ منك ؛ ورجلٌ أنتَ أعزُّ منه ، ورجلٌ ساواكَ في العزِّ ؛ فالتجاهلُ على مَنْ أعزَّ منه لؤم ، وعلى مَنْ هو أعزُّ منك جنف[1] ، وعلى من هو مثلك هراشٌ كهراشِ الكلبَيْن ، ونقارٌ كنقارِ الدِّيكَيْن ، ولا يفترقان إلا عن الخدش والعقر والهجر ، ولا يكادُ يوجدُ التّجاهل وتركُ التّحالم إلا من سفيهَيْن ، ولقد أحسنَ الذي يقول :

مـا تـمَّ حلـمٌ ولا علـمٌ بـلا أدبٍ
ولا تجـاهـلَ فـي قـومٍ حليمـان

---

(١) « جنف » : جور .

ومـا التَّجـاهـلُ إلا ثـوبُ ذي دنـسٍ

وليـــس يلبسُـــه إلا سفيهـــان[1]

* ومكارمُ الأخلاقِ ليس لها حدود ، والعاقلُ الحليم مَنْ يتجمَّلُ بالحلم والعلم ، ويزدان بالأدب ، ليحفظَ مكانة نفسه وقَدْرها ، وقد كان كثيرٌ من السَّلفِ الصَّالحِ يَزْوَرُّونَ عمّا يسقطُ قدرهم ، ويتحاشون السَّفلة من سواد النّاس .

* روي أنَّ رجلاً استطال على سليمان بن موسى فسكتَ عنه سليمان ، وانتصر له أخوه ، فقال مكحول الشّامي : ذلَّ مَنْ لا سفيه له .

* وهذا حالُ العُقلاء ، وذوي النُّفوسِ الكبيرة والهممِ العالية ، فإذا ما خُيِّروا بين أن يحلموا أو يجهلوا ، اختاروا الحلم ولزموه ، وجانبوا الجهلَ والغضبَ وابتعدوا عنه ، وربما ينتصرُ لهم بعضُ الجُهلاء ، ولذلك أُثِرَ عن مكحول الشَّامي قوله : لا حلمَ لمَنْ لا جاهلَ له .

---

(١) روضة العقلاء (ص ٣٤٨ و ٣٤٩) .

* وهذا الحلمُ يحتاجُ إلى الصَّبرِ والعلم وخصوصاً من العالم ، قال أبو حاتم البستي : ما ضُمَّ شيءٌ إلى شيءٍ هو أحسنُ من حلمٍ إلى علم ، وما عُدمَ شيءٌ في شيءٍ هو أقبح من عدمِ الحلمِ في العالم ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدُهما العقل ، والآخرُ الصَّبر ، وربّما يُدفعُ العاقلُ في الوقتِ بعد الوقت ، إلى مَنْ لا يرضيه عنه الحلم ، ولا يُقنعُه عنه الصَّفْحُ ، فحينئذٍ يحتاجُ إلى سفيهٍ ينتصرُ له ، لأنَّ تركَ الحلم في بعض الأوقاتِ من الحلم[1] .

* إنَّ مَنْ يعرفُ قَدْرَ نفسه ، يعرفُ كيف يكون حليماً ، ذكرَ ابنُ عبد ربّه أنَّ المسيح بن مريم عليه السَّلام مرَّ بقومٍ من اليهود فقالوا له شرًّا ، فقال خيراً ، فقيل له : إنَّهم يقولون شرًّا ، وتقول لهم خيراً ؟

فقال : كلٌّ واحدٍ ينفقُ ممّا عنده[1] .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٦) .

* وهكذا يكونُ العالمُ الحليمُ ، فالعلمُ أشرفُ الأحساب ، والحلمُ أشدُّ الأسباب ، وما أجملَ الحلمَ والعلمَ إذا اجتمعا في الإنسان! :

الحلمُ والعلمُ خُلَّتا كَرَمٍ
للمرءِ زينٌ إذا هما اجتمعا
صنوان لا يَسْتَتِمُّ حسنُهما
إلا بجمعٍ لذا وذاكَ معا

* * *

الباب الخامس

الموازنة بين
الحلم والغضب المحمود

الفصلُ الأوَّل : باعثُ الحلم وماهيّته .

الفصلُ الثَّاني : أسبابُ الحلمِ وبواعثُه .

الفصلُ الثَّالث : الغضبُ المحمود .

الفصلُ الرَّابع : هل من علاجٍ للغضب ؟

الفصلُ الخامس : من أسباب تسكين الغضب .

الفصلُ الأوّلُ

بواعثُ الحلمِ وماهيَّتُه

* لا شكَّ في أنَّ الحلمَ من أشرفِ الأخلاقِ ، وأنَّ الحليمَ منتصرٌ في النِّهايةِ ، وسيِّدٌ من حيث حلمه ، فمَنْ نظرَ إلى الحلمِ وإلى فضائلِهِ ، وتأمَّلَ أهلَ الحلم ، عرَفَ أنَّ الحلمَ ذو مكانةٍ ساميةٍ في آدابِ الإسلام ، وعرَفَ أنَّ الحليمَ رفيعُ المكانِ ، ممدوحُ الشَّأنِ ، مرضيُّ القولِ ، مقبولُ الفعلِ ، محمودُ السّيرةِ ، نقيُّ القلبِ والسَّريرةِ .

* ولكنْ هل الحلمُ سجيَّة[1] أم تعلُّم ؟! لا شكَّ أنَّ بذرةَ

---

(١) اختلفَ الأدباءُ والعلماءُ في هذا المجالِ ، فمنهم مَنْ زعمَ أنَّه فطريّ ، ومنهم مَنْ زعم أنّه مُكْتسَب ، قيل : الحلمُ مَنْ لم يكُنْ جِلْمُهُ لفَقْدِ النُّصرَةِ ، أو لعدمِ القُدرة ؛ وهو جوهرٌ في الإنسان يصدرُ عن صدرٍ سالمٍ من الغوائلِ والأذى ، صافٍ من شوائبِ=

الحلمِ تكون موجودة في الإنسان ، وتَنْبتُ بالتَّحلُّمِ والتَّعلُّمِ ، ومنَ المعلومِ أنَّ تكلُّفَ الحلمِ محمودٌ لا يُختلفُ في ذلك

= الكدر والقذى ، لا يُستطاعُ تعلُّماً ، ولا يُدركُ تبصُّراً وتفهُّماً .

ويدلُّ على أنَّه غريزةٌ في الإنسان قولُ النَّبي ﷺ لأشجِّ عبد القيس : « إنَّ فيكَ خصلتَيْن يحبُّهما اللهُ ورسولُه : الحلمُ والأناة » .

ومنَ النّاسِ مَنْ يقولُ : إنَّ الحلمَ ليس غريزة ولا طبيعة ، بل مُكتسَبٌ مُستفاد ، تتمرَّنُ النَّفسُ الأبيَّةُ عليه ، وتنقادُ حُبًّا في المحمدةِ إليه .

وقالوا : الحلمُ بالتَّحلُّمِ كما أنَّ العلمَ بالتَّعلُّمِ ؛ وعن سريّ السّقطي أنَّه قال : الحلمُ على خمسةِ أوجه : حلمٌ غريزيّ ؛ وهو هبةٌ من اللهِ للعبد ، يعفو عمَّن ظلمه ، ويصلُ مَنْ قطعَه ، ويُعطي مَنْ حرمَه ، ويُحسنُ لمَنْ أساءَ إليه .

وحُلمُ تحالُمٍ ، يكظمُ غيظَهُ رجاءَ الثَّوابِ ، وفي القلبِ كراهيّة ؛ وحُلمُ كِبْرٍ : لا يرى المسيءَ أهلاً أن يُجاريه ؛ وحُلمٌ مذموم ، رياء وسمعة ، وهو حاقد ساكت يُرائي به جُلساءَه ؛ وحُلمُ مهانة وذلّة وعجز وضعف نفسٍ وصغر همّة .

(نهاية الأرب (٦/ ٤٨ و ٤٩) بتصرّف يسير .

أبداً ، بل كانوا يحثُّون على ذلك ؛ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : إن لم تكن حليماً فتحلَّم .

* ويذكرُ الجاحظُ أنَّ أهلَ العقلِ والبيان كانوا يأمرون بالتَّحلُّمِ والتَّعلُّمِ والتَّقدُّمِ في ذلك أشدَّ التَّقدُّم[1] .

* فالمسلمُ عليه أن يعملَ على اكتسابِ مكارمِ الأخلاقِ جميعها ومنها الحلمُ ، إذ هو بصائرُ رُشدٍ للمرء ، كما قال كثير عزّة :

وفي الحلمِ والإسلامِ للمرءِ وازعٌ
وفي تركِ طاعاتِ الفؤادِ المتيَّمِ
بصائرُ رُشدٍ للفتى مستبينةٌ
وأخلاقُ صِدْقٍ علمُها بالتَّعلُّمِ

* * *

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٩٧) .

الفصلُ الثَّاني

أسبابُ الحِلمِ وبَواعِثُهُ

* هناك أسبابٌ وبواعثُ للحلمِ وضبطِ النَّفسِ ، ولكن ما هذه الأسبابُ والبواعث ؟!

* اعتبرَ العلماءُ والأدباءُ أنَّ هناك بضعة أسباب للحلم ، وقد أوصلَها بعضهم إلى عشرةِ أسباب ، وها نحن مرسلو القول في هذه الأسباب ، كي يحلو كتابنا ، وتحلو الأويقات التي نعيشها مع الحلم ، وكي نتمثَّل هذه الأسباب عمليًّا وسلوكيًّا لنكون حُلماء ، فما أعظم الحلم!

السَّببُ الأوَّل : الرَّحمةُ للجُهَّال :

* لعلَّ من أعظمِ أسبابِ الحلمِ وبواعثه : الرَّحمة للجُهَّال الذين لا يدركون ما للحلم من مكانة ، وما للتعامل من أثرٍ في وَصْلِ النُّفوسِ بأسبابِ المودّاتِ ، ولو كان الجُهَّالُ يدرون ذلك ما جهلوا على أحد ، ولو لم يكن هناك جُهَّالٌ لما ظهرَ فضلُ الحُلماء . فالجاهلُ عدوُّ نفسه .

كما قال أحد الشعراء :

ما يبلغُ الأعداءُ مِنْ جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ مِنْ نفسهِ

* وفي بعضِ المواقفِ التي صدرتْ عنِ الصَّحابةِ وأكابرِ التَّابعين عِظةٌ وتعليمٌ لمَنْ أحبَّ الاقتداءَ بهم ، رُوي أنَّ أُمَّنا عائشة رضي الله عنها ، اغتاظت من خادمٍ لها ، ثم رجعت إلى نفسها فقالت : لله درُّ التَّقوى ما تركَتْ لذي غيظٍ شفاء .

* وتجاوزَ معاوية رضي الله عنه عن أحدِ النّاس وجعلَه يفي بما أقسم ، ولكن كيف كان حلمُه وتجاوزُه رضي الله عنه ؟

* رُوي أنَّ معاوية بن أبي سُفيان رضي الله عنهما ، لمّا حجَّ لم يترك بيتاً في مكّة حتى أهدى له من الدَّراهم والدَّنانير والطِّيب والدَّواب وغير ذلك ، ولمّا وصلَ للمدينة قسمَ على أهلها وأكثر ، وبعثَ إلى رجلٍ من الأنصارِ بألفي درهم وعشرة أثواب ، فأتاهُ الرَّسولُ بذلك العطاء ، فغضبَ وقال : ما وجدَ معاويةُ مَنْ يُرسلُ إليه بمثل هذا العطاء غيري ؟ ارْدُدْهُ إليه .

فقال الرسول : لا أقدر ، فدعا الأنصاري ابناً له ، وقال : يا بنيّ ، أسألكَ بحقّي عليك ألا رَدَدْتَ هذا العطاءَ على معاوية ، وضربتَ به وجهَه .

فأخذه ابنُ الأنصاري ، وأتى به معاوية ، فعرفَ معاويةُ أنَّ في وجهه كلاماً ، فقال له : ما تريد ؟

قال : أبي يُقرئك السَّلام ، ويقول لك : أمثلي يُرسَلُ إليه بهذا العطاء ؟

قال : من الرَّسولُ إلى أبيك ؟

قال : فلان .

قال : قاتلَهُ الله ، هو أخطأ ودفعَ إلى أبيك عطاءَ رجلٍ

غيره ، ثم قال : يا غلام! عليَّ بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً ، وحلَّةً ووصيفةً ووصيفاً ؛ فأُحضرَ الجميع ، وقال : خُذهم يا بن أخي ، واعتذر إلى أبيكَ وعَرِّفه بخطأ الرَّسول .

فقال : يا أمير المؤمنين! إنَّ للوالد حقًّا ، وله أمرٌ ، وقد أمرني بشيء .

قال معاوية : ما هو يا بن أخي ؟

فقال : إنّه لمّا دفع إليَّ بالثِّياب ، قال : بحقّي عليكَ لا ضربتَ بها وجهه!!

فقال : يا بن أخي! أطِعْ أباكَ ، وارفق بعمِّكَ ، فتقدَّمَ الغُلامُ وضربَ بها وجه معاوية ، وأخذ العطاءَ الثَّاني وانصرف[1] .

* إنَّ الرَّحمة للجُهَّال نابعةٌ من الخيرِ الذي يوافقُ رِقَّةً في

---

(١) انظر : أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٣٩٨) ؛ وفي النَّفس شيء ، بل أشياءٌ من هذه القصة وأشباهها ، والتي تبدو فيها آثار الوضع وآثار الحبكة الضعيفة والصنعة .

الحليم ، وقد قيل في منثور الحكم : من أوكَدِ أسبابِ الحلم رحمةُ الجُهَّال .

* وقد رأينا ما فعلت أُمُّنا عائشة ، وما فعل معاوية رضي الله عنهما ، وكيف تغلَّبا على الجُهَّال بحُسن حلمهما ، وضبط نفسهما ، ولذلك كان سيِّدنا معاوية ـ عليه سحائب الرضوان ـ يوصي ابنه يزيد بالحلم ، وأنَّه جِماعُ كلِّ خيرٍ ، وذروةُ كلِّ فضيلةٍ ، فيقول : يا بُنيّ إنَّا قومٌ لم نَرَ في الحلمِ إلا خيراً .

السَّببُ الثَّاني : التَّرفُّعُ عنِ السُّباب :

* إنَّ النَّفسَ التي استقَتْ ماء حيائها من الحلم ، ورويت بالصَّبر ، ترفَّعُ عن صغائرِ الأمور ، فضلاً عن كبائرها ، ومن ذلك التَّرفُّعُ والبعدُ عن السُّباب ؛ لأنَّ ذلك من عُلوِّ الهمَّةِ ، وشرفِ النَّفسِ ، وكريمِ الخِصالِ ، وجميلِ الفِعالِ ، وقد جعلَ الحكماءُ قديماً الشَّرفَ منوطاً بتحمُّلِ المكارمِ والمكاره معاً ، فقالوا : شرفُ النَّفسِ أن تحملَ المكاره ، كما تحملُ

المكارم . وقال الشَّاعر في هذا المعنى اللطيف :

لا يبلـغُ المجـدَ أقـوامٌ وإن كـرمـوا
حتـى يـذلُّـوا وإن عـزّوا لأقـوام
ويُشْتَمـوا فتـرى الألـوان مُسفـرةً
لا صَفْـحَ ذلٌ ولكـن صفـح أحـلام

* والمعنى أنَّكَ ترى وجوهَهم ضاحكةً مستبشرة ، وذلك الإسفـارُ لحلمهـم وعفـوهـم ، وتـرفُّعهـم عـن الجـاهليـن ، لا لحقارةِ أنفسهم ، أو لدناءةِ طبائعهم ، أو خساسةِ أصلهم ، ولذلك كان العقلاءُ يتواصون بالابتعادِ عن مواطنِ السّباب ، والتَّخلُّـقِ بمكـارمِ ومحـاسـنِ الأخـلاق ، لتفـوحَ أنـداؤهـم العطرات ، وربّما ينقلبُ العدوُّ صديقاً بالحلم ودفع السّباب ، ولله درُّ القائل :

بمكـــارمِ الأخـــلاقِ كُـــنْ متخلِّقـــاً
ليفـوحَ نـدُّ ثنـائِـكَ العطـرِ الشَّـذي

واصدُقْ صديقكَ إن صدقتَ صداقةً
وادفَعْ عـدوَّكَ بـالتـي فـإذا الـذي[1]

السَّببُ الثَّالثُ : الاستهانةُ بالمُسيء :

* ولعلَّ هذا السَّبب لا يحصلُ في حياة الحليم إلاّ نادراً ، إذ تكونُ في الحليم نزعةٌ من كِبْرٍ وإعجاب ، وترفُّعٍ عن المسيء الجاهل ، أو الذي يظنُّ نفسَه أنَّه فوق النّاس .

* من أمثلةِ ذلك ما حُكي عن مصعب بن الزُّبير بن العوّام ـ رحمه الله ـ أنَّه لما وَلِيَ العراقَيْن ، جلسَ يوماً من الأيّام لعطاءِ الجند أعطياتهم ، وأمر مناديه فنادى : أين عمرو بن جُرموز[2] ، فقيل : أيُّها الأمير ، إنّه قد تباعدَ في الأرض .

---

(١) في هذا اقتباس من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

(٢) عمرو بن جرموز التميمي هو الذي قتل الزُّبير غدراً بوادي السّباع سنة (٣٦ هـ) ، ورثته زوجته عاتكة بنت زيد رضي الله عنها ، بقصيدة رائعة تذكر فيها هذا الغدّار عمرو بن جُرموز ، =

فقال مصعب : أويظنُّ الجاهلُ أنّي أُقيده بأبي عبد الله الزّبير ؟! فليظهر آمناً وليأخُذْ عطاءَه موفّراً .

وتسامعَ النَّاسُ بهذا الخبر فعدُّوا ذلك من مستحسنِ الحِلْم .

* وأخذَ ذلك بعضُ الزُّعماء هذه المعاني ، فأنشدَ في شعره هذا البيت :

أو كلّما طنَّ الذُّبابُ طرَدْتُه إنَّ الذُّبابَ إذاً عليَّ كريم[1]

= فتقول :

غدرَ ابنُ جرموز بفارسِ بُهْمَةٍ يومَ اللقاءِ وكان غير معرّد
يا عمرو لو نبَّهته لوجدته لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد
شُلَّت يمينُكَ إن قتلتَ لمسلماً حلَّت عليكَ عقوبةُ المتعمّد
ثكلتْكَ أُمُّكَ هل ظفرتَ بمثله فيمن مضى فيما تروح وتغتدي
كم غمرةٍ قد خاضَها لم يُثْنه عنها طرادكَ يا بن فقع القردد

انظر : (فرسان حول الرسول ، ترجمة الزبير) .

(١) ويشبه هذا قول الآخر :

ولو أنَّ كلَّ كلبٍ عوى ألقمته حجراً لأصبحَ الصَّخرُ مثقالاً بدينار

* وكانت عند الأحنف أَنَفَةٌ من الردِّ على السُّفهاءِ ، فقد أكثرَ رجلٌ من سبِّه واشتطّ ، والأحنفُ صامتٌ لا يُجيبه ، ولا يلتفتُ ناحيته ، وهنا كادَ الرَّجلُ يتميَّزُ من الغيظ ، وقال : واللهِ ما منعَ الأحنفَ من جوابي إلا هواني عليه .

* وفي مثله يقولُ الشَّاعر :

نجا بك لؤمكَ منجى الذُّباب حَمَتْـهُ مقـاذيـرُهُ أن يُنـالا

* وتطاولَ رجلٌ على يزيد بن عمر بن هبيرة ، وأسمعه كلاماً غليظاً ، فأعرضَ عنه ، ولم يُعِرْهُ بالاً ، فكادَ الرَّجلُ يدخلُ طولُه في عرضه ، وقال ليزيد : إيّاكَ أعني يا أبا خالد ـ كنية يزيد ـ فقال له : وعنك أُعرض .

* وفي مثله يقولُ الشَّاعر :

فاذهبْ فأنتَ طليقُ عرضِكَ إنَّه عرضٌ عزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ

* والمعنى : يا هذا الذي تُسمعُنا ساقِطَ الكلام والسّباب ، ادفَعْ شرَّكَ واذهب عنّا ، فأنتَ مصونُ العرضِ كمطلق الأعراض ، وهذا الذي عزّكَ ومنعني عن سبابكَ ، وإلاّ أنتَ ذليلٌ لنيلك من أعراضِ غيرك .

* وقال عمرو بن علي في هذه المعاني :

إذا نطقَ السَّفيهُ فلا تُجِبْهُ فخيرٌ من إجابتِهِ السُّكوتُ
سكتُّ عنِ السَّفيهِ فظنَّ أنِّي عييتُ عنِ الجوابِ وما عييتُ

* وقال آخر :

إنّي أرى الحلمَ محموداً عواقبه والجهل أفنى من الأقوامِ أقواما

* وقال بعضُ الفضلاء : الحِلْمُ عدّةٌ على السَّفيه ، لأنّكَ لا تُقابلُ سفيهاً بالإعراض عنه ، والاستخفاف بفعله إلا أذللته .

* وما أجملَ قولَ الشَّاعر :

ولربّما ضحكَ الحليمُ من الأذى وفؤادُه من حرّه يتأوَّهُ
ولربّما شَكَلَ الحليمُ لسانَه حَذَرَ الجوابِ وإنّه لمُفوَّهُ

* وقيل : ما استبَّ اثنانِ إلا غلَبَ ألأمهما[1] .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٣) .

السَّببُ الرَّابعُ : القُدْرةُ على الانتِصارِ :

* وذلك يأتي عن سَعَةِ الصَّدرِ ، وحُسنِ الثِّقةِ ؛ وقد رُوي عن النَّبي ﷺ أنّه قال : « إذا قدرتَ على عدوِّكَ فاجعلِ العفوَ عنه شكراً للقُدرةِ عليه » .

* وقال أحدُ الحُكماء : ليسَ من الكرمِ عقوبةُ من لا يجدُ امتناعاً من السَّطوة . وقال بعضُ البُلغاء : أحسنُ المكارمِ عفوُ المقتدرِ ، وجودُ المفتقرِ[1] .

السَّببُ الخامسُ : الاستحياءُ من جَزاءِ الجَوابِ :

* هذا السَّبب يكونُ من صيانةِ النَّفسِ ، وكمالِ المروءة ؛ وقال بعضُ الحكماء : احتمالُ السَّفيه خيرٌ من التَّحلّي بصورته ، والإغضاءُ عن الجاهلِ خيرٌ من مشاكلته .

* إنَّ الحليمَ حييٌّ نظيفُ اللِّسانِ ، لا ينطقُ بفاحشِ

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٤٠٠) .

القولِ ، ولا هُجره ؛ قال بعضُ الأدباء : ما أفحشَ حليمٌ ولا أوحشَ كريم .

* وذكر ابنُ قتيبة أنَّه مكتوبٌ في الإنجيل : كونوا حُلماء كالحيّات ، وبلهاء كالحمام .

* وقال بعضُ الشُّعراء :

إنّي لأُعرضُ عن أشياءَ أسمعُها حتى يقولَ رجالٌ إنَّ بي حُمُقا
أخشى جوابَ سفيهٍ لا حياءَ له فَسْلٍ وظنَّ أُناسٍ أنَّه صدقا[1]

* وقال لقيطُ بن زرارة الدّارمي التميمي يخاطبُ بني سعد ، ويُعْلِمُهم بأنَّه حسنُ الفِعال والشِّيَم ، لا يعرفُ الفُحش إلى لسانه سبيلاً ، فهو خَرِقٌ حييٌّ لا يردُّ على أحدٍ بالفحش :

وقُلْ لبني سعدٍ فما لي وما لكم تُرقُّون منّي ما استطعتُ وأُعتِقُ
أغرَّكُم أنّي بأحسنِ شيمةٍ بصيرٌ وأنّي بالفواحشِ أخرقُ

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢٨٤) ؛ و « فسل » : الفسل : مَنْ لا خير فيه ، أو الرذل الذي لا مروءة له .

وإن تَكُ قد فاحَشْتَني فقهرتني هنيئاً مريئاً أنتَ بالفُحشِ أحذقُ[1]

* ويروى أنَّ الأحنفَ قاتلَ في بعضِ المواطنِ قتالاً شديداً ، فقال له رجلٌ : يا أبا بحر ، أين الحلم ؟! قال : عند الحَيّ .

* وذكرَ الأصمعيُّ أنَّ رجلاً قال لآخر : لمثلِ هذا كنتُ أدعُ الفحشَ على الرِّجال ؛ فقال له خصمه : فإنّي أدعُ الفحشَ عليكَ اليومَ لما تركته أنتَ قبل اليوم[2] .

السَّببُ السَّادسُ : التَّفضُّلُ على السَّابِّ :

* لا يعرفُ الفَضْلَ لأهلِ الفضلِ إلا أهلُ الفضل ، وإذا كان الأمرُ كذلك ، فإنَّ التَّفضُّلَ على الشَّاتمين ومسامحتهم يُثمرُ بالألُفةِ ، ويغرسُ بذورَ المحبَّةِ في القلوبِ ، وإنَّ الإغضاءَ عن السَّابّ يجعله يُراجعُ نفسَه مرَّةً ومرَّاتٍ ، فلعلَّ

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٤٠٢) .
(٢) عيونُ الأخبار (٣/ ٢٨٧ و ٢٨٨) .

التَّفضُّلَ عليه يُحرِّكُ في نفسه كوامن الخيرِ ، وربّما يُقلعُ عن غيِّه .

* وكان أكابرُ الحلماءِ في التَّاريخ يُدركون قيمةَ التَّفضُّل على الذين ينالون منهم ، أو يشتمونهم ، لأنَّ التَّفضُّلَ عليهم يكون من الفَضْل والكرمِ وحُبِّ التّألُّف ، وكثيراً ما انقلبتِ العداواتُ صداقاتٍ بالتَّفضُّلِ والصَّفحِ عنِ المذنبين .

* قال الأحنفُ بنُ قيس التميمي ـ رحمه الله ـ : ما عاداني أحدٌ قطُّ إلا أخذتُ في أمره بإحدى ثلاثِ خصال :

إن كان أعلى منّي عرفتُ له قدره ، وإن كان دوني رفعتُ قَدْري عنه ، وإن كان نظيري تفضَّلتُ عليه[1] .

* وقد أخذ الخليلُ هذه المعاني الممتعة ، ونظمها في عقدٍ لطيفٍ فقال :

سأُلزِمُ نفسي الصَّفْحَ عن كلِّ مُذنبٍ ... وإن كَثُـرَتْ منـه إليَّ الجرائـمُ
فما النّاسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثل مقاومُ

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٤٠٢) .

فأمّا الذي فوقي فأعرفُ قَدْرَهُ وأتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ
وأمّا الذي دوني فأحلمُ دائماً أصونُ به عِرضي وإن لامَ لائِمُ
وأمّا الذي مثلي فإن زَلَّ أو هفا تفضَّلْتُ إنَّ الفَضْلَ بالفخرِ حاكمُ[1]

إنَّ المرءَ القادرَ على المداواةِ بالحلمِ لذو حظٍّ عظيمٍ ، فالتَّفضُّلُ على السَّابِّ ، ومعالجته بدواء الحلمِ تُشيرُ إلى مقدرةِ الحليمِ وضبطِ نفسه ، وصفحهِ عن المسيءِ بالتّحلُّمِ والتّآلفِ لقلبه .

* قيلَ لقيسِ بنِ عاصم ـ وهو من أكابرِ الحلماء ـ : ما الحلم ؟

قال : أن تَصِلَ مَنْ قطعَكَ ، وتُعطيَ مَنْ حرمَكَ ، وتعفوَ عمّن ظلمَكَ[2] .

* ولذلك كان الحلماءُ إذا ما تعرَّضوا للشَّتمِ ، أعرضوا وتفضَّلوا على الشَّاتمِ بحُسنِ السُّكوتِ أو الصَّفحِ الجميلِ ،

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٣) .
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٧٨) .

ولهذا قال مؤرق العجلي ـ رحمه الله ـ : ما تكلَّمتُ في الغضبِ بكلمةٍ ندمتُ عليها في الرِّضا[1] .

* والمعنى أنَّه يتفضَّلُ على المُسيءِ ، ولذلك لا يشعرُ بالنَّدمِ ويظلُّ راضياً .

* فالإعراضُ عن السَّابِّ ، والتَّفضُّلُ عليه قد يفيدُه نفسه ، ويَرْدعُهُ عنِ الأذى ، وإلاّ وقعَ الحليمُ في الخطأ نفسه ، وعندها يجني النَّدمَ ؛ ولله درُّ القائلِ :

وفي الحلمِ رَدْعٌ للسَّفيهِ عنِ الأذى وفي الخرقِ إغراءٌ فلا تَكُ أخرَقا

فتندمَ إذ لا تَنْفَعَنكَ ندامةٌ كما نَدِمَ المغبونُ لمّا تفرَّقا

* وتعرَّضَ بعضُ الفُضلاءِ لشتمِ جهول ، فتفضَّلَ عليه بالسُّكوتِ ، ولم يُجِبْهُ ، فقال : ما حلا عندي أفضلُ من غيظٍ أتجرَّعُه .

* فالتَّفضُّلُ على السَّابِّ مكرمةٌ عُظمى ، ويحتاجُ التَّفضُّلُ

---

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٧٩) .

إلى دربةٍ وإلى أناةٍ ورويَّةٍ . قال بعضُ الحُكماء : إنَّ أفضلَ وادٍ تُرى به الحلم والعلم ، فإذا لم تكن حليماً فتحلَّم ، وإذا لم تكن عليماً فتعلَّم ، فقلَّما تشبَّه رجلٌ بقومٍ إلا كان منهم[1] .

* وتظهرُ فضيلةُ التَّفضُّلِ عند الحليمِ إذا ما تعرَّضَ لموقفٍ من سفيهٍ يشتمُه ، أو يستطيلُ عليه بلسانه ، أو هذره :

وليس يتمُّ الحلمُ للمرءِ راضياً إذا هو عند السُّخطِ لم يتحلَّمِ
كما لا يتمُّ الجودُ للمرءِ موسِراً إذا هو عند السرِّ لم يتجشَّمِ

* إنَّ هذا السَّبب الذي نحنُ بصدده من أوضح الأسباب التي نراها في كلِّ مكان ، وقد نراها أحياناً في بعض المجالس ، فقد يتطاولُ بعضُ السُّفهاءِ على غيره ، وقد يسبُّه علانيةً ويشتمُه ، وهنا يظهرُ سِرُّ الحِلْمِ ، وتظهرُ منابعُ الخير في المرءِ الحليم في الإعراضِ عنه ، والتَّفضُّلِ عليه بالتحلُّمِ ، وبالتالي يرتفعُ قَدْرُ الحليم خصوصاً إذا تركَ كلامَ الذين

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٢) .

يوقدون الفتنة ، ويقولون له أجِبْ هذا السَّفيه ، وإلا فأنتَ ضعيف :

أصَمُّ عن الكَلِم المحفظاتِ ... وأحلُمُ والحلمُ بي أشبهُ
وإنّي لأتركُ جُلَّ الكلامِ ... لئلا أُجابَ بما أكرهُ
إذا ما اجترتُ سفاهَ السَّفيه ... عليَّ فإنّي أنا الأسفهُ
فلا تغتَرر برواءِ الرِّجالِ ... وما زخرفوا لكَ أو موَّهوا
فكم من فتًى يعجبُ النّاظرينَ ... له ألسنٌ وله أوجُهُ
ينامُ إذا حضرَ المكرمات ... وعند الدّناءةِ يستنبهُ[1]

السَّببُ السَّابعُ : استِكْفافُ السَّابِّ وقطعُ السّباب :

* إنَّ هذا الاستكفافَ يكونُ في الحزمِ والإعراضِ معاً ، كما حُكيَ أنَّ رجُلاً قال لأحدهم : واللهِ لو قُلْتَ واحدةً لسمعتَ عشراً ؛ فأجابَه : والله لو قلتَ عشراً لم تسمَعْ واحدة .

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٤) .

* ولعلَّ أحدهم أخذَ روحَ هذا المعنى فقال :

وكلبٍ ملا فاهُ من مئزري فلم أرفعِ الذَّيلَ من عَضِّهِ
لأنَّ اللَّئيـــمَ إذا هجتَـــهُ سيرضى بعرضكَ من عرضهِ

* وقال غيره :

إذا أنتَ جاريتَ السَّفيه كما جرى فأنتَ سفيهٌ مثلُه غير ذي حُلمِ

* وللشّعبي ـ رحمه الله ـ كلمةٌ حلوةٌ في قَطْعِ دابِرِ الشَّاتمين فيقول : ما أدركتُ أُمّي فأبرّها ، ولكن لا أسبُّ أحداً فيسبّها .

* وقال بعضُ الحكماء وقد رأى في بترِ السّباب رأياً جميلاً : في إعراضِكَ صونُ أعْراضِكَ .

* وأخذَ هذا المعنى أحدُ الفُضَلاءِ فقال :

قُلْ ما بدا لكَ من زورٍ ومن كذبٍ حلمي أصمُّ وأُذني غير صمّاءِ

* إنَّ كثيراً من أهل اللُّؤمِ والسَّفَهِ يقومون بشتمِ الورعين لأهدافٍ مضلّلة يسعون إليها ، ومنها قولهم للنّاس : إنَّ هؤلاءِ

الأتقياء الورعين الحلماء قد شتمونا وأسمعونا السُّباب ، وذلك مواربة ، فأصحابُ الرِّفعةِ والورعِ والحلمِ والحياءِ لا يفعلون ذلك ، ولهم الرِّفعةُ والمكانةُ بين النّاس بخلافِ اللؤماء ، فهم لا قيمة لهم ، ولو قُتِلوا ، وأهل الحُلمِ لن يسمحوا لأنفسهم بالتعرُّضِ لمثل هؤلاء السُّفهاء ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّهم لن ينالوا مخالطتهم ، أو حتى قتلهم شهرةً أو سُمعةً حسنة ، لأنَّهم تعرَّضوا لحقراء النّاس ، وفي هذه المعاني يقولُ الشَّاعرُ :

إذا نطَـقَ السَّفيـهُ فـلا تُجِبْـهُ فخيرٌ من إجابتهِ السُّكوتُ

لئيمُ القومِ يشتمني ليحظى ولو دمُه سفكتُ لما حظيتُ

فلسـتُ مُشـابهـاً أبـداً لئيمـاً خزيتُ لمن يُشاتمه خزيتُ

* وروي في هذا الباب أيضاً أنَّ رجلاً جعلَ لرجلٍ على أن يقوم إلى عمرو بن العاص يسأله عن أُمِّه ، فقام إليه وهو يخطبُ على منبر تنّيس ـ اسم بلدة ـ فقال له :

أيُّها الرَّجل ، أخبرنا مَنْ أُمُّكَ ؟

فقال : كانت امرأةٌ من عنزة ، أصيبَت بأطراف الرِّماح ، فوقعت في سهم الفاكه بن المغيرة ، فاشتراها أبي ، فوقعَ عليها ؛ انطلقْ وخُذْ ما جُعِلَ لكَ على هذا[1] .

* ورُوي أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال لعامر بن مرّة الزّهري : مَنْ أحمقُ النّاس ؟!

قال : مَنْ ظنَّ أنَّه أعقلُ النّاس .

قال : صدقتَ ؛ فمَنْ أعقلُ النّاس ؟

قال : مَنْ لم يتجاوزِ الصَّمتَ في عقوبةِ الجُهَّال[2] .

* إذاً ؛ فبالحلمِ والصَّمتِ يُرْدَعُ السَّابُّ عنِ الأذى ، ويقطعُ سبابُه ، وبالحزمِ يُتغَلَّبُ على سليطي اللِّسان ، وبذلك يكونُ الحليمُ قد أحسنَ إلى هذه الفئةِ المنحرفةِ من النّاس ،

---

(١) عيونُ الأخبار (٣/ ٢٨٤) ، وفي النفس شيءٌ من هذه القصّة ، إذ تبدو عليها آلة النّسج ، ولكن أوردناها كما جاء في « عيون الأخبار » لدلالة الحلم فيها ، وقطع السِّباب والتّعريض .

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٤٠٣) .

ويكون قد أعطاهم الدّواءَ البسيطَ الذي لا ثمنَ له سوى الحلم والأناة ، وكان كثيرٌ من العلماءِ والأدباءِ والحُلماءِ إذا أتاه سبابٌ من أحدٍ ، سدَّ أُذُنيه لئلاّ يسمعَ ما يكره .

السَّببُ الثَّامنُ : الخَوفُ من العُقوبَةِ على الجَوابِ :

* قال الماوردي : هذا السَّببُ يكونُ من ضعفِ النَّفسِ ، وربّما أوجبَه الرَّأيُ ، واقتضاءُ الحزمِ ، وقد قيل في منثور الحكم : الحلمُ حجابُ الآفات .

وقال الشَّاعرُ :

ارفُقْ إذا خفتَ من ذي هفوةٍ خُرُقاً ليسَ الحكيمُ كمَنْ في أمره خُرُق[1]

* وممّا يُروى في هذا الباب أنَّ الأحنفَ بن قيسٍ سمعَ رجُلاً يُنازعُ في أمرٍ فقال له الأحنفُ : لا أحسبُكَ إلاّ ضعيفاً فيما تحاول .

---

(١) أدبُ الدُّنيا والدّين (ص ٤٠٣ و ٤٠٤) .

فقال الرَّجلُ : ما على ظنِّكَ خرجتُ من عند أهلي .

فقال الأحنفُ : لأمرٍ ما قيل : احذروا الجواب[1] .

السَّببُ التَّاسعُ : الرِّعايةُ ليَدٍ سالِفَةٍ وحُرْمَةٍ لازِمَةٍ :

* وهذا يكونُ من الوفاءِ ، وحُسنِ العهدِ ، وقيل : أكرمُ الشِّيَمِ أرعاها للذِّمَمِ . وقال الشَّاعرُ :

إنَّ الوفاءَ على الكرامِ فريضةٌ ... واللُّؤمُ مقرونٌ بذي الإخلافِ

وترى الكريمَ لمَنْ يعاشرُ مُنصفاً ... وترى اللَّئيمَ مجانِبَ الإنصافِ

السَّببُ العاشرُ : المَكْرُ وتوقُّعُ الفُرَصِ الخَفيَّةِ :

* وهذا يكونُ في الدَّهاءِ ، أمّا مَنْ كان سريعَ الغضبِ ، فلن يكونَ داهيةً ؛ ومن أقوالهم : مَنْ ظهرَ غضبُه قَلَّ كيدُه .

* وقال بعضُ الأُدباء : غضبُ الجاهلِ في قولِه ، وغضبُ

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢٨٤) ؛ ولهذا تفادى الحُلماءُ والعُقلاءُ هذا الجانب وكانوا يقولون : سلام اللئام قبيح الكلام .

العاقلِ في فعلِه . وقال بعضُ الحُكماء : إذا سكتَّ عنِ الجاهلِ فقد أوسَعْتَهُ جواباً ، وأوجعتَهُ عِقاباً .

* وقال الشَّاعرُ :

تُعاقِبُ أيدينا ويحلمُ رأيُنا ونشتمُ بالأفعالِ لا بالتَّكلُّمِ

* وقال بعضُ الشُّعراءِ :

ولَلْكَفُّ عن شتمِ اللَّئيمِ تكرُّماً أضرُّ لهُ من شتمهِ حين يُشْتَمُ[1]

* * *

(١) انظر في هذا كله : أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٨ـ٤٠٤) ، والعقد الفريد (٢/ ٢٧٥ـ٢٨٦) ، وعيون الأخبار (٣/ ٢٨٢ـ٢٩١) ، والمستطرف (١/ ١٨٧ـ١٩٧) ، مع الجمع والتصرف وزيادة بعض الأخبار من مصادر أخرى .

الفصلُ الثَّالثُ

الغَضَبُ المَحمودُ

* مرَّ معنا في الفصلِ السَّابقِ الأسباب التي تدعو إلى الحلم ، والحلمُ كلُّه فَضْلٌ ومكارمٌ ، ولكن إذا عري الحلمُ عن أحد تلكم الأسباب كان ذُلاً ، ولم يكن حلماً ، وإذا فُقِدَ الغضبُ لسماعِ ما يُغضبُ كان ذلك من ذُلِّ النَّفسِ وقِلَّةِ الحميّة ، ولذلك قالتِ الحكماء : ثلاثةٌ لا يُعرفون إلا في ثلاثةِ مواطن : لا يُعرفُ الجوادُ إلا في العسرة ، والشُّجاعُ إلا في الحرب ، والحليمُ إلا في الغضب .

* وقال الشَّاعر :

مَنْ يدَّعي الحلمَ أغْضِبْهُ لتعرفَه لا يُعْرَفُ الحلمُ إلا ساعةَ الغضبِ

* وقال بعضُ الحكماء : العفو يُفسدُ من اللَّئيمِ بقدر إصلاحه من الكريم .

* وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : أكرموا سُفهاءكم فإنَّهم يكفونكم العار والشَّنار .

* وقال مصعبُ بنُ الزُّبير : ما قلَّ سُفهاءُ قومٍ إلا ذُلُّوا .

* وأنشدَ ابنُ دريد عن أبي حاتم :

إذا أمِـنَ الجُهَّـالُ جهلَـكَ مـرَّةً ... فعِرْضُكَ للجُهَّالِ غُنْمٌ من الغُنْمِ

إذا أنتَ جاريتَ السَّفيهَ كما جرى ... فأنتَ سفيهٌ مثلُه غيرُ ذي حلمِ

ولا تَغْضِبَن عرض السَّفيه وداره ... بحلمٍ فإن أعيا عليكَ فبالصُّرمِ

فإن لم تجد بُدًّا من الجهلِ فاستعِنْ ... عليـه بجُهَّـالٍ فـذاكَ مـن العـزمِ

* إنَّ الغضبَ إذا لم يكن في موضعه كان وبالاً على صاحبه ، قال بعضُ السَّلفِ : أقربُ ما يكونُ العبدُ من غضبِ اللهِ عزَّ وجلَّ إذا غضب .

* وقال بعضُ البلغاء : مَنْ رَدَّ غضبَه ، هَدَّ مَنْ أغْضَبَه .

* ولهذا ينبغي لصاحبِ العقل السَّويّ ، والحزمِ القوي ، أن يتلقَّى قوَّةَ الغضبِ بحلمه فيصدّها ، ويقابل ما يعترضُه من منغِّصات بحزمه فيردّها ، ليحظى ويسعد بالعاقبةِ الحميدة . قال بعضُ الأدباء : في إغضائكَ راحةُ أعضائك .

* إنَّ سببَ الغضب هجومُ ما تكرهه النَّفسُ ممّن هو دونَها ، أمّا سببُ الحزنِ فهو هجومُ ما تكرهُه النَّفسُ ممّن فوقَها ، والغضبُ يتحرَّكُ من داخلِ الجسدِ إلى خارجه ، والحزنُ يتحرَّكُ من خارجِ الجسدِ إلى داخله ، فلذلك قَتَلَ الحزنُ ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن ، ولذلك أفضى الحزنُ إلى الموتِ ، ولم يُفْضِ إليه الغضب[1] .

* إنَّ بعض الحلم إذعانٌ أحياناً ، كما أنَّ استعمالَه له في بعضِ الحالاتِ قطبُ العقلِ ، والحلمُ بضاعةٌ لا غنية لامرىء عنها ، إلا أنَّ الغضبَ في موضعه محمدةٌ ، والحلمُ في غير موضعه مفسدة :

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٤٠٨) بتصرّف .

فوضعُ النَّدى في موضع السَّيفِ بالعلا

مضرٌّ كوضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدى

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ

وإن أنتَ أكرمتَ اللَّئيمَ تمرَّدا

* وفي الهدي النَّبويِّ إشاراتٌ رائعاتٌ إلى العفو والصَّفحِ والحلمِ والتَّجاوزِ عن الذَّنبِ وعدمِ الغضب ؛ ومن التحذيرات النَّبوية من الاستجابة لدوافع الغضب ، ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ رجلاً قال للنَّبيّ ﷺ : أوصني ؛ قال : « لا تغضب » ، فردَّدَ ذلك مراراً ، فقال : « لا تغضب »[1] .

* فالحبيبُ المصطفى ﷺ حكيمٌ حليمٌ طبيبٌ بأمراضِ النُّفوس ، والطَّبيبُ الحكيمُ هو الذي يُدركُ واقعَ حالِ المريضِ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦١١٦) ، والترمذي في البر والصلة برقم (٢٠٢٠) ، وأحمد (٢/ ٤٦٦) ، ومالك (٢/ ٩٠٥ و ٩٠٦) .

أمامه ، فيصفُ له العلاجَ المناسبَ والدَّواءَ النَّاجعَ الذي يُناسبُ حالته المرضيَّة ، والظَّاهرُ أنَّ هذا الرَّجلَ السَّائلَ للحبيب المصطفى ﷺ أن يوصيه ، كان الغضبُ من أقوى أمراضه الخُلُقيّة ، ومن أجلِ ذلك اقتصرَ الحبيبُ المصطفى ﷺ على قوله له : « لا تغضب » ؛ لأنَّه ﷺ علمَ حالته فكان الجواب « لا تغضب »[1] .

---

(١) قال الخطّابي : معنى قوله ﷺ : « لا تغضب » ، اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرَّض لما يجلبه ، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النّهي عنه لأنّه أمر طبيعي لا يزول عن صاحبه .

وقيل : معناه : لا تغضبْ لأنَّ أعظمَ ما ينشأُ عن الغضب الكِبْر ، لكونه يقعُ عند مخالفة أمر يريده .

وقيل : معناه لا تفعل ما يأمرك به الغضب .

وقال ابن بطّال : مجاهدةُ النَّفس أشدّ من مجاهدة العدو ، لأنَّه ﷺ جعل الذي يملكُ نفسه عند الغضب أعظم النّاس قوّة .

وقال غيرُه : لعلَّ السَّائلَ كان غضوباً ، وكان النَّبي ﷺ يأمرُ كلَّ أحدٍ بما هو أولى به ، فلهذا اقتصرَ في وصيَّته له على ترك الغضب . =

* والحقُّ يُقال : إنَّ ضبطَ النَّفسِ ومدافعةَ الغضبِ بطولةٌ لا يقدرُ عليها إلا أقوياءُ الإرادة ، فليس من السَّهلِ إذا غضبَ الإنسانُ أن يضبطَ نفسَه ، ويكفَّ غضبَه ، ويكفَّ عن الانتقامِ ممّن أغضبه ، ولذلك جعل الحبيبُ الأعظمُ ﷺ البطلَ الحقَّ هو الذي يملكُ نفسَه عند الغضب .

* روى الشَّيخانِ : البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب » .

= وقال ابن التّين : جمع ﷺ في قوله : « لا تغضب » خير الدنيا والآخرة ، لأنَّ الغضبَ يؤولُ إلى التقاطع ومنع الرّفق ، وربما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه ، فينتقص ذلك من الدّين .

وقال البيضاوي : لعلّه لما رأى أنَّ جميعَ المفاسد التي تعرضُ للإنسانِ إنَّما هي من شهوته ومن غضبه ، وكانت شهوة السَّائلِ مكسورة ، فلما سأل عمّا يحترزُ به عن القبائح ، نهاه عن الغضب الذي هو أعظم ضرراً من غيره ، وأنّه إذا ملك نفسه عند حصوله كأنه قد قهر أقوى أعدائه .

* قال أبو حاتم البُسْتي ـ رحمه الله ـ : أحسنُ النّاسِ عقلاً مَنْ لم يَحْرَدْ ، وأحضرُ النّاسِ جواباً مَنْ لم يغضب[1] .

* إنَّ سرعةَ الغضبِ ، وعدمَ التَّحكّمِ أنكى في العاقل من النّارِ في الهشيم ، لأنَّ مَنْ غضِبَ زايله عقله ، وعملَ ما شانَه وأرداه ، فسرعةُ الغضبِ من شيم الحمقى ، ومجانبته من شيمِ العُقلاء ، ولله درُّ القائل :

ولـــم أرَ فضـــلاً تـــمَّ إلا بشيمـــةٍ
ولـم أرَ عقـلاً صـحَّ إلا علـى الأدبِ
ولم أرَ في الأعداءِ حين اختبرتُهم
عدوًّا لعقلِ المرءِ أعدى من الغضبِ

* إنَّ الغضبَ نذير شؤمٍ ، والمرءُ العاقلُ على تركه أقدرُ منه على إصلاحِ ما أفسده بعد الغضب ، ولهذا كان محمدُ بنُ عون ـ رحمه الله ـ لا يغضبُ ، فإذا أغضبَه إنسانٌ قال : باركَ اللهُ فيك .

---

(١) روضة العقلاء (ص ٢٣٥) .

* قال أبو حاتم البُستي : لو لم يكن في الغضبِ خصلةٌ تُذَمّ إلا إجماع الحكماءِ قاطبةً على أنَّ الغضبانَ لا رأي له ، لكانَ الواجبُ عليه الاحتيال لمفارقته بكلِّ سببـ. والغضبان لا يعذره أحدٌ في طلاقٍ أو عتاق ؛ ومن الفقهاء مَنْ عَذَرَ السَّكرانَ في الطَّلاقِ والعتاقِ ، والخَلْقُ مجبولون على الغضبِ والحلمِ معاً ، فمَنْ غضبَ وحلمَ في نفسِ الغضب ؛ فإنَّ ذلك ليس بمذمومٍ ما لم يخرجُه غضبُه إلى المكروه من القولِ والفعل ، على أنَّ مفارقتَه في الأحوالِ كلِّها أحمد .

* قال عبدُ الملك بنُ مروان : إذا لم يغضبِ الرَّجلُ لم يحلُم ، لأنَّ الحليمَ لا يُعرفُ إلا عندَ الغضب .

* * *

الفصلُ الرّابعُ

هَلْ من علاجٍ للغضب ؟

* في حديثنا عن الحلمِ ، وعن الغضبِ المحمودِ ، واستكمالاً للفائدة ، رأينا أن نضعَ هذا الفصلَ المهمَّ ليتمَّ به عِقْدُ الكتاب ، وتزدانَ صفحاته بفرائده وفوائده ، إذ إنَّ علاجَ الغضب وتسكينه ممّا يحتاجُه كلُّ إنسانٍ في هذه الحياة ، كما أنَّ كثيراً من الأطبّاءِ ينصحون بالابتعادِ عن الغضب ، لأنَّ الغضبَ يزيدُ من إفرازِ بعض الهرمونات الخطرةِ من غدّة الكظر ؛ وهذه الهرمونات تهيجُ القلبَ ، وترفعُ من ضغط الدم ، وتزيدُ من نسبةِ السُّكّر في الدّم ، وتؤدّي إلى ما لا تُحمَدُ عُقباهُ من الأمراض الخطيرةِ من مثل : الفالج ، والشَّلل ، والجلطات المتنوّعة ، ومرض السُّكّري الذي أصبح

« موضة » الأمراض العصريّة . وهذا كلُّه قد نصحَ به الحبيبُ المصطفى المربّي الأعظم ﷺ ، وأبانَ علاجَه بأبسطِ الأشياء التي لا تُكلِّفُ شيئاً ، ولا تجعلُ الإنسانَ يذهبُ إلى طبيبٍ متخَصِّصٍ ، أو ينتظرُ شهراً بموعدٍ مُسبق حتى يدخلَ على الطَّبيبِ لمدة دقائق معدودة ، ويأخذَ منه دراهم غير معدودة ، ويصفُ له الدَّواءَ والعقاقير التي قد لا يحتاجها لو اتَّبع النّصائح والإرشادات النَّبويّة من قبل[1] .

* والآن دعونا نسترح في أفياء الطب النَّبوي نستروحُ من نفحاته العطراتِ ، وأندائهِ المباركاتِ علاجَ الغضبِ ، فلا نغضبُ ولا نجعلُ الغضبَ يحتلُّ نفوسَنا ، أو يتدخَّل في تصرُّفاتنا .

* روى أبو داود عن معاذِ بنِ جبل رضي الله عنه ، قال : استبَّ رجلان عند رسول الله ﷺ فغضبَ أحدهما غضباً

---

(١) اقرأ موسوعتنا « الطب في ضوء القرآن والسنة والأدب » ففيها ما يسرُّ بإذن العزيز الحليم .

شديداً ، حتى خُيِّلَ إليَّ أنَّ أنفه يتمزَّعُ من شدَّةِ غضبه ، فقال النَّبي ﷺ : « إنّي أعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنه ما يجده من الغضب » .

فقال : ما هي يارسول الله ؟

قال : « يقولُ : اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الشَّيطانِ الرَّجيم » .

* وروى أبو داود عن أبي ذرّ رضي الله عنه ، قال : إنَّ رسول الله ﷺ قال لنا : « إذا غضبَ أحدُكم وهو قائمٌ فليجلس ، فإن ذهبَ عنه الغضبُ وإلا فليضطجعْ » .

* وروى أبو داود أيضاً عن عطية رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الغضبَ من الشَّيطان ، وإنَّ الشَّيطان خُلِقَ من النّار ، وإنَّما تُطفأُ النّارُ بالماء ، فإذا غضبَ أحدُكم فليتوضّأ » .

* إنَّ سرعة الغضب من الأمراض المهلكة للبدن ، والمستنفذة لقواه ، وقد جاءتِ الأحاديثُ النَّبويّة الشَّريفةُ بطُرقٍ ناجعةٍ لمكافحة الغضب ، والحدِّ من تأثيره السَّيىء على

البدن ، منها : الاستعاذةُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم ، ومنها تغيير وضعية الجسم من حالٍ إلى حالٍ آخر ، ومنها الوضوء أو الاغتسال لتبريد الجسم ، وتهدئة ثائرته .

* يُروى عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، أنَّه كان يخطبُ يوماً ، فقال له أحدُ الحاضرين : كذبتَ ، فنزل مُغضباً ، ودخل منزله ، ثم خرج عليهم تقطرُ لحيتُه ماءً ، فصَعِدَ المنبرَ وقال : أيُّها النّاسُ ، إنَّ الغضبَ من الشَّيطان ، وإنَّ الشَّيطانَ من النّار ، فإذا غضبَ أحدُكم فليطفئه بالماء . ثمَّ أخذ في الموضع الذي بلغه من خطبته[1] .

* وقال مؤرقُ العجلي : ما تكلَّمتُ في الغضبِ بكلمةٍ ندمتُ عليها في الرِّضا .

* وقالوا : إذا غضبَ الرَّجلُ فليستلقِ على قفاه[2] .

* وفي الحديث المرفوع : « إذا غضبَ أحدُكم فإن كان

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢٩٠) .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٧٩) .

قائماً فليقعُدْ ، وإن كان قاعداً فليضطجعْ »[1] .

* وكان يُقال : إيّاكَ وعزَّةُ الغضب ، فإنّها مصيركَ إلى ذُلِّ الاعتذار .

* وفي تسكين الغضب قال الطّوفي : أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التّوحيد الحقيقي ، وهو أن لا فاعل إلاّ الله ، وكلُّ فاعلٍ غيرُه فهو آلةٌ له ، فمَنْ توجَّه إليه بمكروه من جهةِ غيره ، فاستحضر أنَّ الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه ، لأنَّه لو غضبَ والحالةُ هذه ، كان غضبُه على ربِّه ـ جلَّ وعلا ـ وهو خلافُ العبوديّة .

وبهذا يظهرُ السِّرُّ في أمره ﷺ الذي غضبَ بأن يستعيذَ من الشَّيطانِ لأنَّه إذا توجَّه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذةِ به من الشَّيطانِ أمكنَه استحضارُ ما ذكر ، وإذا استمرَّ الشَّيطانُ متلبّساً متمكّناً من الوسوسة ، لم يمكنه من استحضار شيءٍ من ذلك .

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢٩٠) .

الفصلُ الخامسُ

من أسبابِ تسكينِ الغَضَبِ

* هناك أسبابٌ كثيرٌ لتسكينِ الغضبِ يُستعانُ بها على الحلم ، ومنها :

أوّلاً : أن يذكرَ الغاضبُ اللهَ عزَّ وجلَّ في نفسه أوّلاً ، ويدعوهُ ذلك إلى الخوف منه ، وهذا الخوفُ يبعثُه على الطّاعةِ له ، ومن ثمَّ يرجعُ إلى أدبه ، وعندها يزولُ الغضبُ ، قال ربُّنا عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ، ومعنى قوله : ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ أي يُغضبنَّكَ ، فاستعِذْ بالله ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ، يعني : إنَّه سميعٌ بجهلِ مَنْ جَهِلَ ، عليمٌ بما يُذْهِبُ عنكَ الغضب .

* وذكر أنَّه مكتوبٌ في التَّوراة : يا بن آدمَ ، اذكرني حين تغضب ، أذكركَ حين أغضب ، فلا أمحقكَ فيمن أمحق .

* وحُكيَ أنَّ بعضَ الملوكِ كتب كتاباً ، ودفعه إلى وزيرٍ له ، وقال : إذا غضبتُ فناولنيه ؛ وكان فيه : إنّما أنتَ بشرٌ ، ارحم مَنْ في الأرض يرحمكَ مَنْ في السَّماء .

* وقال بعضُ الحكماء : مَنْ ذكرَ قُدرةَ الله لم يستعمل قدرته في ظلمِ عباد الله .

* وفي تفسير قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف : ٢٤] ، قال عكرمة : يعني إذا غضبتَ .

ثانياً : أن ينتقلَ الغاضبُ من الحالةِ التي هو منها إلى حالة غيرها ؛ وإذا ما فعلَ الإنسانُ ذلك فإنَّه يزولُ عنه الغضبُ بتغيير الأحوال ، والتَّنقُّلِ من حالٍ إلى حال ، وكان هذا مذهبُ بعض خلفاء الإسلام إذا غضبَ ، وكانت بعضُ الملوكِ تقولُ : إذا غضبَ القائمُ فليجلسْ ، وإذا غضبَ الجالسُ فليقُمْ .

ثالثاً : أن يتذكَّرَ ما يؤولُ إليه الغضبُ من النَّدمِ ، ومذمَّةِ الانتقام ، ولا شكَّ في أنَّ هذا يجعلُ الغاضبَ رهينَ كلامه ، وربّما يؤدّي به ذلك الغضبُ إلى الحضيض ، وإلى حالةٍ قد لا يرضاها وهو في حالةِ طبيعته .

* قال بعضُ الأدباء : إيّاكَ وعزَّة الغضب ، فإنَّها تُفضي إلى ذُلِّ العذر ؛ وقال بعضُ الشُّعراء :

وإذا ما اعترَتْكَ في الغضب العزّ ةُ فـاذكُـرْ تـذلُّـلَ الاعتـذارِ

* وإذا كان غضبُ الملكِ أو الخليفة على أحد الرعيَّة ، فإنَّ في ذلك خطراً كبيراً من هذا الغضب ؛ روي أن كِسرى أبرويز كتب إلى ابنه شيرويه يُبيِّنُ له أن يحترسَ من الغضب : إنَّ كلمةً منكَ تسفكُ دماً ، وإنَّ أُخرى منكَ تحقنُ دماً ، وإنَّ نفاذَ أمركَ مع ظهورِ كلامك ، فاحترِسْ في غضبكَ من قولكَ أن تُخطىءَ ، فإنَّ الملوكَ تعاقِبُ قُدرةً وتعفو حلماً .

* وقال بعضُ الحكماء : الغضبُ على مَنْ لا تَمْلِكُ عجزٌ ، وعلى مَنْ تملكُ لؤمٌ .

رابعاً : أن يذكرَ الغاضبُ ثوابَ العفو ، وجزاءَ الصَّفح ؛ وعندها يقهرُ نفسَه على الغضب ، رغبةً في الجزاء والثَّواب ، وحذراً من استحقاقِ الذَّمِّ والعقاب .

* قال رجاءُ بن حَيْوَةَ لعبد الملك بن مروان في أُسارى ابن الأشعث : يا أمير المؤمنين ، إنَّ اللهَ تعالى قد أعطاكَ ما تُحبُّ

من الظَّفَرِ ، فأعْطِ اللهَ ما يُحبُّ من العفو .

* وقد رُوي عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال :

« الخيرُ ثلاثُ خِصالٍ مَنْ كُنَّ فيه فقد استكملَ الإيمان : مَنْ إذا رَضِيَ لم يُدخِلْهُ رضاؤُه في باطل ، وإذا غضبَ لم يُخرجهُ غضبُه من حقّ ، وإذا قدرَ عفا » .

* ويُروى أنَّ رجلاً أسمعَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كلاماً ، فقال له عمر : أردتَ أن يستفزَّني الشَّيطانُ لعزَّةِ السُّلطان ، فأنالُ منكَ اليوم ما تنالُه منّي غداً ، انصرفْ رحمكَ الله .

خامساً : أن يذكرَ انعطافَ القلوبِ عليه ، وميلَ النُّفوسِ إليه ، فلا يرى إضاعةَ ذلك بتنفير النّاسِ عنه ، وبُعدِهم منه ، فكيفَ عن متابعةِ الغضب ، فيرغبُ في التألّف وجميل الثّناء .

* قال بعضُ البُلغاء : ليس من عادةِ الكرامِ سُرعةُ الانتقامِ ، ولا من شروطِ الكرامِ إزالةُ النِّعمِ[1] .

---

(١) انظر : أدب الدنيا والدين (ص ٤٠٨-٤١١) بشيء من التصرف .

الباب السادس

الحلم بين المدح والذم في الأمثال والأدب

الفصلُ الأوّلُ : مدحُ الحلمِ في الأمثالِ والأدبِ .

الفصلُ الثَّاني : ذمُّ الحلمِ في الأمثال .

الفصلُ الأوَّلُ

مَدْحُ الحِلْمِ في الأمثالِ والأدَبِ

* يقتعدُ الحلمُ في مكارمِ الأخلاقِ مكان الرَّأسِ في الجِسْم ، ولذلك نَلْمَحُ أهميَّةَ الحلمِ في أقوالِ العربِ وأمثالهم ، وقد أكثرَ العربُ وأهلُ الأمثالِ من امتداحِ الحلْم ـ كما سنرى ـ وعدُّوه أحدَ مفاخرهم ، وجرى على لسانهم المثلُ المشهور : الحلمُ سيِّدُ الأخلاقِ .

* قال أبو عُبيد ـ رحمه الله ـ : من أمثالهم في الحلم قولهم : إذا نزلَ بكَ الشَّرُّ فاقعُدْ ، أي فاحلُمْ ولا تُسارع إليه[1] .

---

(١) العقد الفريد (٣/ ١٠٤) .

* وقولهم في الحلماء : كأنَّما على رؤوسهم الطّير[1] . لأنَّ الطَّيرَ لا تسقطُ إلا على ساكن .

* وقولهم في الحليم : إنَّه لواقع الطَّير ، ولساكن الرّيح[2] .

يعني أنَّ الحليمَ رزينٌ لا يتحرَّكُ ولا يُحرِّكُ جوارحه .

* وقولهم : حلمي أصمُّ وأُذني غيرُ صمّاء[2] .

* ومن الأمثال المحفوظة في امتداح الحلم هذه الأقوال :

الرِّفقُ ثنيُّ الحلم .

حلمُ ساعة يدفعُ شرًّا كثيراً .

الحلمُ غول الحلم . أي مُهلكُه .

احلُمْ تَسُدْ .

مَنْ حَلُمَ سادَ ، ومَنْ تفهَّمَ ازدادَ[3] .

---

(١) العقد الفريد (٣/ ١٠٤) .

(٢) العقد الفريد (٣/ ١٠٤) .

(٣) عيون الأخبار (٣/ ٢٨٢) .

* وهذا المثلُ يُشيرُ إلى السُّؤدُدِ ، إذ قُرِنَ الحلمُ بالسِّيادة ، بل هو من وسائل السُّؤدد ، وهو من الخصائلِ المُستحسنةِ في السُّؤدُدِ والشَّرف[1] .

* وقال أكثمُ بن صيفي : دعامةُ العَقْلِ الحِلْم ، وجماعُ الأمر الصَّبر .

* وقال الحسنُ البصري : الحليمُ سليم ، والسَّفيهُ كليم .

وهذان القولان في الحلم جَريا مجرى الأمثال .

* وممّا حُفِظَ عن العربِ قولُهم : عُدِلَ السَّفيه بألف حليم .

* وقال الأصمعي : لا يكادُ يجتمعُ عشرةٌ إلا وفيهم مقاتلٌ وأكثر ، ويجتمعُ ألف ليس فيهم حليم[2] .

* وقولُهم : لا حُلمَ لمَنْ لا سفيه له .

* وقولهم : ليس الحليمُ مَنْ إذا ظُلمَ فحلم ، حتى إذا قدر

---

(١) راجع فصل : الحلم والسؤدد في هذا الكتاب .
(٢) عيون الأخبار (٣/ ٢٨٧) .

انتقم ، ولكنَّ الحليمَ مَنْ ظُلمَ فحلُم حتى إذا قدر عفا .

* وقالوا : إذا تلاحتِ الخصوم ، تسافهتِ الحلوم .

* وأوردَ الميداني في مجمع الأمثال أنَّهم قالوا : ضَلَّ حلمُ امرأةٍ فأين عيناها . والمعنى : هَبْ أنَّ عقلَها ذهبَ فأين ذهبَ بصرُها ؟ يُضربُ في استبعاد عقل الحليم .

* ومن الأمثال المشهورة التي نُسِبَ فيها الحلمُ إلى أهلِ الحلمِ قولُهم : أحزمُ من سنان ، وأحلمُ من سنان[1] ؛ قال أبو هلال العسكري : ولم يُجمع الحزمُ والحلمُ لأحدٍ غيره ، وهو سنان بن أبي حارثة[2] .

* وقال الأصمعي : سمعتُ أعرابياً يقولُ : كان سنانُ بن أبي حارثة أحلمَ من فرخ الطّائر . قلتُ : وما حلمُ فرخ الطائر ؟ قال : إنَّه يخرجُ من بيضةٍ في رأسِ جبل ، ولا يتحرَّك

---

(١) كتاب جمهرة الأمثال (١/ ٣٢٩) برقم (٦٨٣ و ٦٨٤) ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ١٩٨٨ م .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

حتى يتوفَّر ريشه ، ويقوى على الطيران[1] .

* وقالوا : أحلمُ من الأحنف[2] . وهو الأحنف بن قيس . والحلماء كثيرون ، يُقال : أحلام عاد ، كما قال الشاعر :

على امرىءٍ هَدَّ عرشَ الحيِّ مصرعُه
كـأنَّـه مـن ذوي الأحـلامِ مـن عـاد

وقال النَّابغة :

أحلامُ عادٍ وأجسادٌ مُطهَّرةٌ من المعقَّةِ والآفاقِ والإثمِ

* وذُكرَ حلْمُ لقمان بن عاد ، وحصن بن حذيفة ، وزرارة بن عدس ، وحاجب بن زرارة ، وغيرهم .

* وهذا ولم يحظَ أحدٌ من ذكر الحلم بما حظي به

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨٠) بتصرف يسير جداً .
(٢) جمهرة الأمثال (١/ ٣٢٨) برقم (٦٨١) ، ومجمع الأمثال (١/ ١٤٨) .

الأحنف بن قيس هذا ، وأسبابُ الأمور عجيبة ، وكان يقول :

لست بحليم ولكنّي صبور ، أو قال : ولكنّي أتحالم .

وقيل له : ما الحلم ؟

فقال : الذُّلُّ تصبرُ عليه[1] .

* وقال أبو تمّام مادحاً ـ وقد ذكر حلم الأحنف في معرض مديحه ـ :

إقدامُ عمرو في سماحةِ حاتمٍ
في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

* وممّا يُروى عن حلمِ الأحنف أنَّ رجلاً شتمه ، وألحَّ عليه ، فلمّا فرغَ قال له : يا بن أخي ، هل لك في الغداء ؟ فإنَّك منذُ اليوم تحدو بجُمَلٍ ثقال[2] .

* ومن الأمثال السَّائرة التي تُنسبُ إلى أشخاصٍ قولهم :

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٧٧) .

(٢) عيون الأخبار (٣/ ٢٨٣) .

أحلمُ ممّن قرعت له العصا . أو : إنَّ العصا قُرِعَتْ لذي الحلم . يُضرب لمن إذا نُبِّه انتبه . قال العسكري : والحلم عند العرب : العلم .

* وقيل هذا المثلُ : أحلمُ ممّن قُرعت له العصا : هو عامرُ بن الظّرب العدواني ، وكان من حُلماء العرب وحكّامها ، وكان قد أسنَّ ، فربّما هفا في نادي الحُكْم ، فتُقرعُ له العصا فيرتدع . قال المتلمّس :

لذي الحلمِ قبل اليومِ ما تُقْرَعُ العصا
وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليعلما

* وقال الحارثُ بنُ وعلة :

وزعمتَ أنَّا لا حلومَ لنا
إنَّ العصا قُرِعَتْ لذي الحلمِ

* وقال الفرزدق :

فإنّي كنتُ أستأني حلومَ مجاشعٍ
فإنَّ العصا كانت لذي الحلمِ تُقرعُ

الفصلُ الثّاني

ذَمُّ الحِلْمِ في الأمثالِ

*يبدو ذمُّ الحلمِ في أمثالِ العربِ قليلاً إذا ما قيس في امتداحه ؛ ولعلَّ ذمَّ الحلمِ في أمثالهم قد وردَ قليلاً ، وورد مصحوباً بموقفٍ ما ، أو حادثةٍ عابرة .

* وممّن جعلَ الحلمَ في موضع النَّدم عيسى بن طلحة بن عُبيد الله ، فقد قيل له ـ وكان حليماً ـ : ما الحلم ؟

قال : الذُّلُّ .

* ولعلَّ المعنى الذي أراد هذا التّابعي الكريم عيسى بن طلحة ، الصَّبر على تحمُّلِ الأذى والشَّتم .

* وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما : إنَّ الحلمَ الذُّلّ .

* وقال : لا حلمَ لمَنْ لا سفيه له .

* وقال : ما قلَّ سُفهاءُ قومٍ إلا ذُلُّوا .

* ومن أمثالهم في ذم الحليم قولهم : الحليمُ مطيَّةُ الجَهول[1] .

يُضربُ هذا المثلُ في احتمالِ الحليم . قال العسكري : معناه أنَّ الحليمَ يحتملُ جهلَ الجهولِ ، ولا ينتصفُ منه[2] .

وقال أبو هلال العسكري أيضاً : أجمعُ كلمةٍ سمعناها في الحلم ، ما سمعتُ عمَّ أبي يقول : الحليمُ ذليلٌ عزيزٌ ، وذلك أنَّ صورة الحليم صورةُ الذَّليل الذي لا انتصار له ، واحتمال السَّفيه والتّغافل عنه في ظاهر الحال ذلّ وإن لم يكن به .

وقيل : الحليمُ مطيَّةُ الجَهولِ ؛ لاحتماله جهله وتركه

---

(١) انظر : جمهرة الأمثال (١/ ٢٨٤) برقم (٥٣٢) ، ومجمع الأمثال (١/ ١٤٢) ، والعقد الفريد (٣/ ١٠٤) .

(٢) جمهرة الأمثال (١/ ٢٨٤) .

الانتصاف منه[1] .

فالحليمُ يتوطّأُ للجاهلِ فيركبه بما يريدُ فلا يجازيه عليه كالمطيّة .

ويُشبه هذا المثلَ قولُ الشَّاعر :

وإنَّمـــا الحلـــمُ ذُلٌّ أنـــتَ عـــارفـــهُ
والحلمُ عن قدرةٍ ضَرْبٌ من الكرمِ

* ومن أمثالهم في ذمِّ الحلمِ : لا ينتصفُ حليمٌ من جاهلٍ ؛ لأنَّ الجاهلَ ربّما يغلبُ الحليم ، فيحتمل أذاهُ دون أن ينتقمَ منه .

* وقيل لشيخٍ من الأعراب : ما الحلمُ ؟! فقال : الذي يصبرُ عليه .

* وقال : الحلمُ عقالُ الشَّرِّ ، وذلك أنَّ مَنْ سَمِعَ مكروهةً فسكتَ عنها انقطعَتْ عنه أسبابُها ، وإن أجابَ اتَّصلَتْ بأمثالها .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

الباب السابع

الحلم في نفحات الأدباء وأخبار الحكماء

الفصلُ الأوَّلُ : من أنداءِ الحلمِ في أشعارِ العرب .

الفصلُ الثَّاني : الحلمُ بين أنفاسِ الفلاسفةِ والحكماءِ والحلماءِ والشُّعراءِ .

الفصلُ الثَّالثُ : من أخبارِ حُلَماءِ العربِ .

الفصلُ الأوّلُ

من أنداءِ الحلمِ في أشعارِ العَربِ

* في كتُبِ الأدبِ القديمةِ والحديثة ، نجدُ أصحابها قد أولوا الحلمَ عنايةً خاصَّةً ، وذكروا بدائعَ بدائه الشعراء فيما نفحوا به الأدبَ العربي الجميل من أشعارهم الحِسان ، وأقوالهم الجميلة في هذا الميدان .

* وقد حفلت دواوينُ الشُّعراءِ قديماً وحديثاً بنخبةٍ ممتازةٍ ممّا قيل في الحلم ، واشتُهِرَ عددٌ من شعراءِ العربيّة في هذا المضمار الميمون ؛ ومن تصفَّح دواوين شعراءِ عصر الجاهلية وعصر الإسلام ومَنْ بعدهم وجد أنَّ الحلمَ يزيِّنُها ، كما يجدُ أنَّ أدبَ الحلمِ كان من الآدابِ الرَّائجةِ في كلِّ عصرٍ ومِصر .

* ولقُرَّاءِ الشِّعر العربي قديمه وحديثه آراءٌ طيِّبةٌ في الحكم

على بعض النَّفحاتِ الشِّعريّة ، ومن ذلك إجماعُهم على أنَّ أشعرَ بيتٍ قيل في أدبِ الحلمِ هو قولُ الشَّاعر :

إذا أنتَ لم تُعْرِضْ عنِ الجهل والخَنا

أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ[1]

وهذا البيتُ كما جاء في المصادر لكعب بن زهير المزني[2] .

---

(١) نهاية الأرب (٦/ ٥٦) ، والمستطرف (١/ ١٩٤) .

(٢) كعبُ بنُ زهير بن أبي سلمى المُزَني الشَّاعرُ ابنُ الشَّاعرِ ، صحابيٌّ مشهورٌ ، خرجَ هو وأخوه بُجَير حتّى قدما على رسول الله ﷺ فدخلَ بُجَير وأسلم ، وكان كعبٌ قد قال شعراً أغضبَ عليه رسول الله ﷺ ، فأهدرَ دمَهُ ، فكتبَ إليه بُجيرٌ بذلك ، وقال له : النَّجاء ، ثمّ كتبَ إليه : إنّه لا يأتيه أحدٌ مسلماً إلا قبل منه ، وأسقطَ ما كان قبل ذلك ، فأسلمَ كعبٌ ، وقدمَ المسجدَ النَّبويّ ، وطلبَ الأمانَ من النَّبي ﷺ ، فعفا عنه ، فبايعهُ كعبٌ وأنشده القصيدة الشَّهيرة التي مطلعُها :

بانت سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ متيَّمٌ إثرها لم يفْدَ مكبولُ

* ويُروى أنَّ الشَّعبي ـ رحمه الله ـ كان أولعَ شيءٍ بهذا البيت الجميل اللطيف :

ليستِ الأحلامُ في حالِ الرِّضا

إنَّما الأحلامُ في حالِ الغضبِ[1]

* ويرى كثيرٌ من الشُّعراء أنَّ فضيلةَ الصَّمتِ مقرونةٌ

= ومنها :

نبِّئتُ أنَّ رسول الله أوعدَني والعفوُ عندَ رسول اللهِ مأمولُ

ومنها :

إنَّ الرَّسولَ لنورٌ يُستضاءُ به مهنّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

فكساهُ النَّبي ﷺ بُردةً له ، فاشتراها فيما بعد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من ولده ، فهي التي يلبسها الخُلفاءُ في الأعياد .

هذا وأخبار كعب بن زهير مشهورة منثورة في كتب الأدب والتراجم والطبقات .

(الإصابة ٨/ ٢٨٩ـ٢٩٢) ترجمة رقم (٧٤٠٥) .

(١) المستطرف (١/ ١٩٢) .

بالحلم ، والحليمُ السَّكوتُ سِلْمٌ وسلامٌ ، وأسْلَمُ إذا لم يكن سكوتُه عن عيٍّ وبلادة ، ولله درُّ القائلِ :

لعمــرُكَ إنَّ الحلــمَ زيــنٌ لأهلــهِ
ومــا الحلــمُ إلا عــادةٌ وتحلُّــمُ
إذا لم يكن صَمْتُ الفتى عن بلادَةٍ
وعــيٍّ فــإنَّ الصَّمــتَ أهــدى وأسلــمُ

* وكانَ الخلفاءُ والملوكُ من أحْفَلِ الخَلْقِ في حفظِ ما لذَّ وطابَ من الأشعار ، التي تعالجُ الأخلاقَ وتفصحُ عن الخلائقِ المتأصِّلةِ في النُّفوس ، وكانوا يزيِّنون مجالسَهم بمحاسنِ الأحاديثِ والأشعار التي تجلو صدأ النُّفوسِ وتُهذِّبُها ، وتُذكي فيها روحَ مكارمِ الأخلاقِ .

* ومن ذلك ما أوردَه أبو الفرج الأصفهاني في « أغانيه » أنَّ عبد الملك بن هشام قال : قال عبدُ الملك بن مروان يوماً وعنده عدّةٌ من أهل بيته وولده : ليقُلْ كلُّ واحدٍ منكم أحسنَ شعرٍ سَمِعَ به ، فذكروا لامرىء القيس ، والأعشى ، وطَرَفة ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك :

أشعرهم واللهِ الذي يقولُ :

وذي رحمٍ قلَّمْتُ أظفارَ ضغنِهِ ... بحلمي عنه وهو ليس له حِلْمُ
إذا سمْتُهُ وصلَ القرابةِ سامَني ... قطيعتها تلك السَّفاهةُ والظّلمُ
فأسعى لكي أبني ويهدمُ صالحي ... وليس الذي يبني كمن شأنُه الهدمُ
يحاولُ رغمي لا يحاولُ غيره ... وكالموتِ عندي أن ينالَ له رغمُ
فما زلتُ في لينٍ له وتعطُّفٍ ... عليه كما تحنو على الولدِ الأُمُّ
لأستلَّ منه الضَّغْنَ حتى سلَلْتُه ... وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحلمُ

قالوا : ومَنْ قائلها يا أمير المؤمنين ؟

قال : مَعْنُ بنُ أوسٍ المزنيّ[1] .

---

(١) الأغاني للأصفهاني (١٢/ ٧٦ و٧٧) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ١٩٩٢ م ، وبالمناسبة فهي قصيدةٌ طويلةٌ جميلةٌ ، وبعد تلك الأبيات قوله :

فأبرأتُ غلَّ الصَّدرِ منه توسُّعاً ... بحلمي كما يشفى بأدويةٍ كَلْمُ
وأطفأتُ نارَ الحربِ بيني وبينَه ... فأصبحَ بعد الحربِ وهو لنا سِلْمُ

ومعنُ بنُ أوس بن نصر المزني شاعر مجيد فحل ، من =

* ومن أجملِ ما قيل في الحلم وامتداحه ، وذمِّ السَّفه وأهله ، ما قاله سراقةُ بن مرداس البارقي :

مجالسةُ السَّفيه سَفاهُ رأيٍ ومن حلمٍ مجالسةُ الحليمِ

فإنَّكَ والقرين معاً سواءٌ كما قُدَّ الأديمُ من الأديمِ

وفي مَدْحِ الحلم يقولُ أحدُ الشُّعراء :

ألا إنَّ حلمَ المرءِ أكبرُ نسبةٍ يُسامى بها عندَ الفخارِ كريمُ

= مخضرمي الجاهلية والإسلام ، وله مدائحُ في جماعةٍ من أصحاب النَّبي ﷺ ورحمهم ، منهم عبد الله بن جحش ، وعمر بن أبي سلمة المخزومي . ووفدَ إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مستعيناً به على بعض أمره ، وعُمّر بعد ذلك إلى أيّام الفتنة بين عبد الله بن الزُّبير ومروان بن الحكم ، وكان معاوية رضوان الله عليه يُفضِّلُ مزينة في الشِّعر ويقول : كان أشعر أهل الجاهلية منهم وهو زهير ، وكان أشعر أهل الإسلام منهم وهو ابنه كعب ومعن بن أوس . (الأغاني ١٢/٦٩-٨٢) .

فيا ربِّ هَبْ لي منكَ حلماً فإنَّني أرى الحلْمَ لم يندمْ عليه حليمُ[1]

* وممّن أدلى دلوَهُ في امتداحِ الحلم محمود بن حسن الورّاق ، الذي يشكو ظالماً ظَلَمَهُ ويرحمه ، ويرثي له حاله ، فيقول :

إنِّي وهبْتُ لظالمي ظُلمي وغفرتُ ذاكَ له على علمِ
ورأيتُـهُ أسـدى إلـيَّ يـداً لمـا أبـانَ بجهلـهِ حِلْمـي
رجعتْ إساءتُهُ عليه وإحسـ ـاني إليَّ مضاعفُ الغُنْمِ
وغـدوتُ ذا أجـرٍ ومحمـدَةٍ وغدا بكسبِ الظُّلمِ والإثمِ
وكـأنَّمـا الإحسـانُ كـان لـه وأنا المُسيءُ إليه في الحكمِ
مـازال يظلمنـي وأرحمُـه حتى رثيتُ له من الظُّلمِ[2]

* والحلمُ في منظور الحسن البصري أفضلُ رداءٍ تردّى به

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨١) .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٨٥) ، وزهر الآداب (ص ٩٨ و ٩٩) ، ونهاية الأرب (٦/ ٥٥) .

الإنسان ، وهو أحسنُ من بُردِ الحَبْر ، وأخذ أبو تمّام هذا المعنى فنظمَهُ فقال :

رقيقُ حواشي الحلْمِ لو أنَّ حِلمَهُ
بكفَّيْكَ ما ماريتَ في أنَّه بُرْدُ[1]

* وقال البحتري مادحاً :

حليمٌ إذا القومُ استخفَّتْ حلومهمْ
وقورٌ إذا ما حادِثُ الدَّهرِ أجلبا

* وهكذا نرى دائماً أنَّ الحلمَ مرتبطٌ بالكرمِ والشَّرفِ والسُّؤدُدِ ومكارمِ الأخلاقِ ؛ وفي أخبارِ الشُّعراءِ وأشعارهم صورٌ جميلةٌ في هذا الأدبِ الجميل ، وكثيراً ما نجدُ أحدَ الحُكماءِ قد تعرَّضَ له سفيهٌ ونالَ منه ، واعتدى عليه بقبيح الكلام ، فتركَهُ الحليمُ ولم يردَّ عليه تحلُّماً ، وألجمَهُ بالحلم ، فقامَ يجرُّ رجلَيْه ذليلاً حقيراً ، وقد حملَ المذمَّةَ والملام ، ويبقى الحلمُ سيِّدَ الأخلاقِ ، وفضائلُهُ أبلغ

---

(١) المستطرف (١/ ١٩٢) .

الفضائل ، وفي هذه المعاني يقول محمود الورّاق :

رجعتُ على السَّفيهِ بفضلِ حلمٍ ... وكان الفعلُ عنه له لجاما
وظنَّ بي السَّفاه فلم يجدني ... أُسافهُه وقلتُ له كلاما
فقامَ يجرُّ رجلَيْه ذليلاً ... وقد كسبَ المذمَّةَ والملاما
وفَضْلُ الحلمِ أبلغُ في سفيهٍ ... وأحرى أن يُنالَ به انتقاما

* وقد أجمعَ أهلُ الفضلِ من الشُّعراءِ على أنَّ الحلمَ أرفعُ الخصائلِ ، وأعلى الفضائلِ ، وعدُّوا أشعرَ النّاسِ مَنْ أجادَ امتداحَ الحلم ، ومن ذلك أنَّه قيل لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، مَنْ أشعرُ النّاسِ ؟ قال : الذي يقولُ :

إنّي من القومِ الذينَ إذا اجتدوا ... وبدوا ببرِّ اللهِ ثم النَّائلِ
المانعينَ من الخَنا جيرانَهم ... والحاشدينَ على الطّعامِ النَّازلِ
الخالطينَ فقيرهم بغنيِّهم ... والباذلينَ عطاءَهم للسَّائلِ

ومنها :

لا يُطعمونَ وهم على أحسابهم ... يشفونَ بالأحلامِ داءَ الجاهلِ
والقائلينَ ولا يُعابُ خطيبُهم ... يومَ المقامةِ بالكلامِ الفاضلِ

والشِّعرُ لعمرو بن الإطنابة الخزرجي[1] .

* وهناك أشعارٌ وصلتنا عن الحلم تذكرُ محاسنَهُ ومساوئَهُ ، من ذلك أنَّ بعضَ الأعرابِ قد لخَّصَ منافعَ الحلمِ ومضارَّه ، ومحاسنه ومساويه ، فقال :

أرى الحِلْمَ في بعضِ المواطنِ ذلّة ... وفي بعضها عِزًّا يُشرِّفُ فاعلُه
إذا أنتَ لم تدفَعْ بحلمِكَ جاهلاً ... سفيهاً ولم تقرِنْ به مَنْ يُجاهلُه
لبست له ثوبَ المذلَّةِ صاغِراً ... فأصبحَ قد أودى بحقِّكَ باطلُه
فأبْقِ على جُهَّالِ قومِكَ إنَّه ... لكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه[2]

* * *

---

(١) انظر : أخبار عمرو بن الإطنابة في الأغاني (١١/ ١٢٧ـ١٣٠) .

(٢) انظر : رسائل الجاحظ (١/ ٣٦٥ و ٣٦٦) .

الفصلُ الثّاني

الحِلْمُ بينَ أنفاسِ الفلاسفَةِ والحُكماءِ والحُلَماءِ والشُّعراءِ

* قالتِ الفلاسفةُ : الحلمُ فضيلةُ النَّفسِ يُكسبُها الطُّمأنينةَ ولا يُحرِّكُها الغضبُ بسهولةٍ وسرعةٍ .

* وقالوا : الحلمُ والأناةُ توءمانِ يُنتجهما علوُّ الهمَّةِ .

* وقال سفيان : ما تقلَّدَ امرؤٌ قلادةً أحسنَ من حلم ، فهو محمودٌ عاجلُه وآجلُه .

* ورأى حكيمٌ من ملكٍ ترفُّقاً فقال : ليس التَّاجُ الذي يفتخرُ به علماءُ الملوكِ فضّة ولا ذهباً ، لكنّه الوقارُ المكلَّلُ بجواهرِ الحلمِ ، وأحقُّ الملوكِ بالبسطةِ عند ظهورِ السَّقطةِ مَنِ

اتَّسعت قُدرتُه[1] .

* قال حسَّان :

أحلامُنا تزِنُ الجبالَ رزانةً وتزيدُ جاهلنا على الجُهَّالِ

* وقال المتنبّي :

وأحلمُ عن خِلّي وأعلمُ أنَّني متى أجزه حلماً عنِ الجهلِ يندمُ

* وقيل لحكيم : أيُّ الأحمالِ أثقل ؟!

قال : الغضب .

* وسُئِلَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما عن الغضبِ والحزنِ أيُّهما أشدُّ ؟ فقال : مخرجهما واحد ، واللَّفظُ مختلفٌ ، فمَنْ نازعَ مَنْ يقوى عليه أظهرهُ غضباً ، ومَنْ نازعَ من لا يقوى عليه كتمه حزناً .

* وقال الشَّافعيُّ : مَنِ استُغْضِبَ ولم يغضب فهو حمار ، ومن استُرضيَ ولم يرضَ فهو جبّار .

---

(١) محاضرات الأدباء (١/ ٢٢١) .

* وممّا جاءَ في ذمِّ الحلمِ قولُ سالم بن وابصةَ :

وإنَّ مــن الحلــمِ ذُلاً أنــتَ عــارفُــه
والحلــمُ عــن قــدرةٍ فَضْــلٌ مــن الكــرمِ

* وقال المتنبي :

من الحلمِ أن تستعملَ الجهلَ دونَه
إذا اتَّسعتْ في الحلمِ طُرقُ المظالمِ

* وقال آخر :

وفي الحلــمِ ضعــفٌ والعقــوبــةُ هيبــةٌ
إذا كنتَ تخشى كيدَ مَنْ عنه تصْفَحُ

* وحذَّرَ أحدُهم من حلمِهِ ، ونهى عن الاغترارِ به فقال :

ــلا يغــرُرْكَ طــولُ الحلــمِ منِّــي
فمــا أبــداً تُصــادفنــي حليمــا

* وقيل : آفةُ الحلمِ الذّلُّ .

* وقيل : استعمالُ الحلمِ مع اللَّئيمِ أضرُّ من استعمالِ الجهلِ مع الكريم .

* وقال الأحنف :

ومَـنْ يحلُـمْ وليـس لـه سفيـهٌ
يُـلاقِ المعضـلاتِ مـن الـرِّجـالِ

* وقال غيرُه : أكرموا سُفهاءَكم فإنَّهم يكفونكم النّارَ والعار .

* ومدحَ الشَّعبيُّ الحلمَ فقال : زينُ العلمِ حلمُ أهلِه[1] .

* وقال محمدُ بنُ أبي شحاذ :

إذا الحلمُ لم يغلبْ لكَ الجهلَ لم تزلْ
عليـكَ بـروقٌ جمَّـةٌ ورواعِـدُ

* وقال شُريحٌ : الحلمُ كنزٌ موقَّرٌ ، والحليمُ مطيَّةُ الجَهولِ .

* وقالوا : بالعقلِ استُخْرِجَ غَوْرُ الحكمةِ ، وبالحلم استُخْرِجَ غَوْرُ العقلِ .

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٦١٥) .

وقال أبو العتاهية :

فيا ربِّ هَبْ لي منكَ حلماً فإنّني أرى الحلمَ لم يندمْ عليه حليمُ

* وقال عمارةُ بن عقيل :

إذا أغضبتَ ذا كرمٍ تخطّى إليكَ ببعضِ أخلاقِ اللَّئيمِ
وإنَّ اللهَ ذو حُلـــمٍ ولكـــن بقَدْرِ الحلمِ منتصفُ الحليمِ

* وكان عبد الله بن عمر إذا سافرَ ، سافرَ معه بسفيهٍ ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن جاءَنا سفيهٌ ردَّ عنّا سفَهه ، لأنّا لا ندري ما نقابلُ به السُّفهاء[1] .

* وقال آخر :

ولربَّما اعتقدَ الحليمُ بجاهلٍ لا خيرَ في اليُمْنِ بغيرِ يسارِ

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٦١٩) .

الفصلُ الثّالثُ

من أخبارِ حُلماءِ العربِ

* رأينا في الفصول السَّابقةِ ماهيّة الحلم ، وعرفنا أسبابَه ودوافعَه ، كما تعلَّمنا كيف نعالجُ الغضبَ ، وعرفنا كذلك مادّة الحلم وآدابها في ضوءِ الكتاب والسُّنَّةِ ، كما تجوَّلنا مع الحلمِ في رحابِ اللُّغةِ والمَثَلِ ، ورأينا وصايا الصَّحابة والتَّابعينَ بالتزامِ الحلمِ وتمثُّلِه قولاً وعملاً ، وأوردنا كذلك جملةً صالحةً من أشعارِ العربِ في الحلم ، ورأينا في هذا الفصلِ أن نأخذَ صورةً وضيئةً عمليَّةً من أخبار الحُلماءِ في تاريخنا العربي قديمه وحديثه لتتمَّ بذلك فائدةُ الكتاب .

* وتزخرُ المصادرُ بذكرِ أسماءِ مشاهيرِ الحُلماءِ العرب في الجاهليَّةِ والإسلام ، ويوردُ الجاحظُ وغيرُه أسماءَ عددٍ كبيرٍ

من هؤلاء من مثل : زرارة بن عدس ، وحاجب بن زرارة ، وقيس بن عاصم ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، ومعن بن زائدة وآخرين ، ومن أشهرهم الأحنفُ بن قيس الذي حظي بالشُّهرة الواسعةِ في سماء الحلم . ويقولُ الجاحظ : ولو أنَّ الأحنفَ رأى حاجب بن زرارة ، أو زرارة بن عدس أو حصن بن حذيفة لقدَّمهم على نفسه[1] .

* ويبدو أنَّ قيس بن عاصم المنقري كان المَثَلَ الشَّرود الذي يُضربُ به المثلُ في الحلمِ قديماً ، فقد كان شاعراً ، فارساً ، سيِّداً في الجاهليَّة والإسلام ، ضُرِبَ به المثلُ في الحلم فقيل : أحلمُ من قيس بن عاصم[2] .

* ومن حلم قيس ما ذكره بعضُ الرُّواةِ أنَّه جلسَ في داره يوماً على المائدة ، ومعه ولد له صغير ، وجاءتِ الجاريةُ بسفودٍ عليه شواء ، فسقطَ من يدها على رأسه فلم يُخطىء قلبَه

---

(١) الحيوان (٢/ ٢٤٦) .
(٢) الحيوان (٢/ ٩٢) .

فمات ، فدُهشَتِ الجاريةُ وانتُقِعَ لونُها ، فقال : لا بأسَ عليكِ أنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى!! .

* وتبدو على هذه القصَّةُ علائمُ النَّسجِ وتحليق الخيال لإثباتِ صفة الحلم لقيس بن عاصم المنقري هذا ، وهناك قصَّةٌ أخرى تشيرُ إلى حلم قيس عندما قُتِلَ ابنُه ، وكيف حلُمَ على قاتل ابنه ، ومنها يزعمون أنَّ الأحنفَ بن قيس قد تعلَّم الحلم .

* أمّا كيف كان ذلك وكيف حصل ، فهو ما ذكره الأخباريون والرُّواة أنَّه قيل للأحنف : ممَّن تعلَّمتَ الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم المنقري ، رأيتُه قاعداً بفناء داره ، مُحتبياً بحمائل سيفه يُحدِّثُ قومَه ، حتى أُتي برجلٍ مكتوفٍ ؛ ورجلٍ مقتولٍ ، فقيل له : هذا ابنُ أخيكَ قَتَلَ ابنَكَ! فوالله ما حلَّ حبوتَه ، ولا قطعَ كلامَه ، ثمَّ التفتَ إلى ابن أخيه فقال : يا بن أخي ، أثِمْتَ بربِّكَ ، ورميتَ نفسكَ بسهمِكَ ، وقتلتَ ابنَ عمِّكَ ، ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بنيَّ فوارِ أخاكَ ، وحُلَّ كِتافَ ابنِ عمِّكَ ، وسُقْ إلى أُمِّكَ مئةَ ناقةٍ ديةَ

ابنها فإنها غريبة ، ثم أنشأ يقولُ :

إنّي امرؤٌ لا شائنٌ حَسَبي دنَسٌ يُهجِّنه ولا أفَنُ[1]

من منقرٍ في بيتِ مكرمَةٍ والغصنُ ينبتُ حولَه الغصنُ

خُطباءُ حين يقولُ قائلُهم بيضُ الوجوه أعِفَّة لسنُ

لا يفطنون لعيبِ جارهم وهم لحفظِ جوارِه فُطنُ

ثمَّ أقبلَ على القاتل فقال : قتلتَ قرابتَك ، وقطعتَ رحمكَ ، وأقللتَ عدوَّكَ ، لا يبعد الله غيرك[2] .

* وكان الأحنفُ يقولُ : لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم

---

(١) ورد هذا البيت في الاستيعاب على النحو الآتي :

إنّي امرؤٌ لا يعتري خلقي دنسٌ يفنّده ولا أفنُ

(٢) انظر : العقد الفريد (٢/ ٢٧٧) ، وعيون الأخبار (٣/ ٢٨٦ و ٢٨٧) ، والاستيعاب (٩/ ١٨٠ـ١٨٥) ترجمة رقم (١٢٤٠) مع الجمع والتصرف ؛ وانظر : نهاية الأرب للنويري (٦/ ٥٠ و ٥١) ، والبيان والتبيين (٢/ ٤٣) ، ومجمع الأمثال (١/ ٢٣٠ وغيرها) .

في الحلم ، كما نختلفُ إلى الفقهاء في الفقه[1] .

* وفي قيس بن عاصم يقول عبدة بن الطّبيب :

عليكَ سلامُ اللهِ قيس بن عاصم ورحمتُه ما شاءَ اللهُ أن يترحَّما
تحيَّـةَ مَـنْ ألبستَـه منـكَ نعمـةً إذا زارَ عن شحطٍ بلادكَ سلَّما
وما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ولكنَّـه بنيـانُ قـومٍ تهـدَّمـا

* وتدلُّ المصادرُ على أنَّ الأحنفَ بنَ قيسٍ كان كثيرَ العفو والحلم ، وكان مشهوراً بين الناس بالحلم ، وبذلك سادَ عشيرتَه ، وكان يقولُ : وجدتُ الاحتمالَ أنصرَ لي من الرِّجال .

* وذكرَ الأبشيهي في « مستطرفه » أنَّه قيل للأحنف : ممّن تعلَّمتَ الحلم ؟

فقال : من قيس بن عاصم ، كنّا نختلفُ إليه في الحلم ، كما يُختلفُ إلى الفقهاءِ في الفقه ، ولقد حضرتُ عنده يوماً ، وقد

---

(١) عيون الأخبار (٢/ ٢٨٧) .

أتوه بأخ له قد قتلَ ابنه ، فجاؤوا به مكتوفاً ، فقال : ذعرتم أخي ؛ أطلقوه ، واحملوا إلى أُمِّ ولدي ديته ، فإنَّها ليست من قومنا ، ثمّ أنشأ يقولُ :

أقولُ للنَّفسِ تصبيراً وتعزيةً إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خلفٌ من فَقْدِ صاحبِه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي[1]

* ولا شكَّ في أنَّ قيسَ بن عاصم كان رجلاً ذا حلمٍ ومروءةٍ وشهامةٍ ، وهو صحابيٌّ من بني تميم ، قال النّووي في « تهذيبه » : وفَدَ على النَّبي ﷺ في وفدِ بني تميم سنة تسعٍ من الهجرة ، فأسلمَ وقال النَّبي ﷺ لمّا رآهُ : « هذا سيِّدُ أهلِ الوبر » .

وكان قيس عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم[2] .

---

(١) المستطرف (١/ ١٨٧ و ١٨٨) .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٧٢ و ٣٧٣) ترجمة رقم (٥١٦) .

* وقال النّووي أيضاً : وكان قيسُ حرَّمَ الخمرَ في الجاهليّة ، وكان جواداً ، وخلَّفَ اثنين وثلاثين ابناً ، روى عن النَّبي ﷺ أحاديث ، وروى عنه الأحنفُ بن قيس والحسنُ البصريُّ ، وابنه حكيمُ بنُ قيس وآخرون ، نزلَ قيس البصرة وقال عند موته : لا تنوحوا عليَّ فإنَّ النَّبي ﷺ لم يُنَحْ عليه[1] .

* وفي كتابه « الاستيعاب » استوعبَ ابنُ عبد البر بعض أخبار قيس بن عاصم فقال : وكان قيس رضي الله عنه عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم ، وكان قد حرَّمَ على نفسه الخمر في الجاهليّة ؛ وقال فيها أشعاراً منها قوله :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها ... خصالٌ تُفسدُ الرَّجلَ الحليما

فلا واللهِ أشربها صحيحاً ... ولا أسقي بها أبداً نديما[2]

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الاستيعاب (٩/ ١٨٠ـ١٨٥) ترجمة رقم (١٢٤٠) .

* من هذا البحر الزّاخر بالحلم ، اغترف الأحنفُ[1] بن قيس فراتَ هذا الأدب الثرّ العظيم ، فغدا من المشاهير بالحلم في عالم الحُلماء ، وكُتِبَ مع الخالدين الحُلماء .

* وممّن اشتُهر بأدب الحلم سيِّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، حيث يأتي في مقدّمة حُلماء العرب والصَّحابة الكرام ، ولا تكادُ تخلو ترجمةٌ لمعاوية رضي الله عنه في كتابٍ من كُتبِ الأدبِ أو التَّراجمِ أو الطّبقاتِ إلا يُذكرُ فيها حلمُه .

ومن أقوالهِ المأثورةِ والمحفوظةِ في الحلمِ قولُه : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكِّنكم الفرصةُ ، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصَّفحِ والإفضال . وكان يقولُ : إنّي لآنفُ أن يكونَ

---

(١) روي أن رجلاً شتم الأحنفَ ، وجعل يتبعه حتى بلغ حيّه ، فقال الأحنف : يا هذا إن كان بقي في نفسك شيءٌ فهاته وانصرف لا يَسْمَعَكَ بعضُ سُفهائنا فتلقى ما تكره (عيون الأخبار ٣/ ٢٨٧) .

في الأرضِ جهلٌ لا يسعهُ حلمي ، وذنبٌ لا يسعهُ عفوي ، وحاجةٌ لا يسعها جودي .

* هذا وقصَصُ الوافدينَ على معاويةَ من الرِّجالِ ، وقصَصُ الوافداتِ عليه من النِّساءِ أيضاً تملأُ كتب الأخبار ، وتدلُّ جميعها على حلمه رضي الله عنه ، فقد وردَ أنَّه قال لامرأةٍ من نُصراءِ سيِّدنا عليِّ بن أبي طالب امتدحت عليًا رضي الله عنه أمامَه :

إذا لـم أعُـدْ بـالحلـمِ منّـي إليكـمُ
فمَـنْ ذا الـذي بعـدي يُـؤمَّـلُ للحِلْـمِ
خـذيهـا هنيئـاً واذكـري فعـلَ مـاجـدٍ
جزاكِ على حربِ العداوةِ والسِّلمِ[1]

* وهنـاك قصـصٌ ذكـرهـا الرُّواةُ تُشيرُ إلى حِلْـمِ معـاويـةَ رضي الله عنه ، ومنها قصَّتُه مع الزَّرقاءِ بنت عدي الهمدانيّة ، وقصَّتُه مع عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما ، وقصَّتُه مع

---

(١) صبح الأعشى (١/ ٢٦٠) .

رجلٍ من الأنصار ، وكلُّها تُشيرُ إلى حلمه وصبرِه ، وأنَّه لم يرَ في الحلمِ إلا خيراً ، حتى قالوا : « ما هو إلا في حلمِ معاوية » .

* وذكر الرُّواةُ أنَّ المهلَّبَ بن أبي صُفرةَ كان حليماً ، وقد مرَّ بحيٍّ من همدان ، فرآه شابٌّ من أهل الحيّ فقال : هذا المُهلَّب ؟!!

قالوا : نعم .

قال : واللهِ ما يُساوي خمسمئة درهم!

وكان المهلَّبُ رجلاً أعور ، فسمعه المهلَّبُ ، فلمّا كان اللَّيلُ أخذَ في كُمِّه خمسمئة درهم وأتى إلى الحيّ ، وارتقبَ الشَّابّ إلى أن رآه ، فأتى إليه وقال :

افتَحْ حِجْرَكَ ، ففتحَ الشابُّ حجرَهُ ، فسكبَ فيه الخمسمئة درهم ، وقال : خُذْ قيمةَ عمِّكَ المُهلَّب ، والله يا بن أخي لو قوَّمتَني بخمسة آلاف دينار لأتتكَ ، فسمعه شيخٌ من أهل الحيِّ فقال : واللهِ ما أخطأ فيكَ مَنْ جعلكَ سيِّداً .

* هذا وأخبارُ الحلمِ والحُلماءِ كثيرةُ المناهلِ في مصادرنا ، وكان علماءُ العربِ وأُدباؤهم يرونَ أنَّ الحلمَ من فضائلِ العرب ، ولقد أشارَ ابنُ قتيبة إلى أنَّ فضائلَ العربِ ستّ : العِرضُ ، والحماسةُ ، والصِّدقُ ، والحلمُ ، والضِّيافةُ ، والصَّبرُ ، وأنَّها تكونُ المروءة التي هي الفضيلةُ الكُبرى .

* وذكر أيضاً أنَّهم كانوا يتواصون بالحلمِ والحياءِ والتذمّمِ والنجدةِ والصَّبرِ والبسالةِ ، بقدر ما ينكرون البخلَ والغدرَ والسَّفَهَ والدَّناءةَ .

* وقد تحدَّثَ كثيرٌ من عُلماءِ الأخلاقِ العرب عن هذه الفضيلةِ كالغزالي ، وأشاروا جميعاً إلى فَضْله وحُسن مركبه .

* هذا وليعلم العاقلُ أنَّ الحلمَ جماعُ كلِّ أدبٍ وفضيلةٍ ، فليهذِّبِ الإنسانُ نفسَهُ على هذا الأدبِ الذي يُفضي به إلى مراتبِ الخالدين .

* اللهمَّ اجْعَلْنا مِنَ الحُلَماء ، واحْشُرْنا مع سيِّدِ الحُلماء ، وزَيِّنّا بالعِلْمِ والحِلْمِ ، وأكْرِمْنا بنورِ الفَهْمِ ، إنَّكَ سميعُ الدُّعاء . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥

الباب الأول: بين يدي الحلم ١١

الفصل الأول: الحلم في ميزان الأخلاق والأدب ١٣

الفصل الثاني: من معاني الحلم في معاجم اللغة ٢١

الباب الثاني: الحلم في القرآن والسنة ٢٧

الفصل الأول: الحلم في معاني القرآن الكريم ٢٩

الفصل الثاني: الحلم من الشمائل المحمدية ٣٩

الفصل الثالث: توجيهات وأحاديث نبوية في الحلم ٤٧

الباب الثالث: من وصايا الصحابة والتابعين بالحلم ٥٧

الفصل الأول: من وصايا وأقوال الصحابة في الحلم ٥٩

الفصل الثاني: الحلم في حياة التابعين ووصايا العلماء ... ٦٧

الباب الرابع: الحلم وبعض مكارم الأخلاق ٧٣

الفصل الأول: الحلم والسؤدد ٧٥

الفصل الثاني: الحلم وكرم النفس ٨٤
الباب الخامس: الموازنة بين الحلم والغضب المحمود ٨٩
الفصل الأول: بواعث الحلم وماهيته ٩١
الفصل الثاني: أسباب الحلم وبواعثه ٩٤
الفصل الثالث: الغضب المحمود ١١٨
الفصل الرابع: هل من علاج للغضب؟ ١٢٦
الفصل الخامس: من أسباب تسكين الغضب ١٣١
الباب السادس: الحلم بين المدح والذم في الأمثال والأدب . ١٣٥
الفصل الأول: مدح الحلم في الأمثال والأدب ١٣٧
الفصل الثاني: ذم الحلم في الأمثال ١٤٤
الباب السابع: الحلم في نفحات الأدباء وأخبار الحكماء .. ١٤٧
الفصل الأول: من أنداء الحلم في أشعار العرب ١٤٩
الفصل الثاني: الحلم بين أنفاس الفلاسفة والحكماء
والحلماء والشعراء ١٥٩
الفصل الثالث: من أخبار حلماء العرب ١٦٤
فهرس الموضوعات ١٧٥

* * *